الفصل العاشر

أهم الأحداث ما بين أحد والخندق

المبحث الأول

محاولات المشركين لزعزعة الدولة الإسلامية

كانت غزوة أُحد مشجعة لأعداء الدولة الإسلامية على مواجهتها، وساد الشعور لدى الأعراب المشركين، بإمكان مناوشة المسلمين والتغلب عليهم، واتجهت أنظار المشركين من الأعراب إلى غزو المدينة لاستئصال شأفتهم، وكسر شوكتهم، فطمعت بنو أسد في الدولة الإسلامية، وشرع خالد بن سفيان الهزلي لجمع الحشود لكي يهاجم بها المدينة، وتجرأت عضل والقارة على خداع المسلمين، وقام عامر بن الطفيل بقتل القراء الدعاة الآمنين، وحاولت يهود بني النضير أن تغتال رسول الله ﷺ، فتصدى لهذه المحاولات الماكرة الحبيب المصطفى بشجاعة فائقة، وسياسة ماهرة، وتخطيط سليم، وتنفيذ دقيق.

أولاً: طمع بني أسد في الدولة الإسلامية:

بلغت النبي ﷺ بواسطة عيونه المنبثة في الجزيرة العربية أخبار الاستعدادت التي قام بها بنو أسد بن خزيمة بقيادة طليحة الأسدي من أجل غزو المدينة، طمعاً في خيراتها وانتصاراً لشركهم، ومظاهرة لقريش في عدوانها على المسلمين، فسارع النبي ﷺ إلى تشكيل سرية في مئة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد [1] المخزومي، وعقد له لواء، وقال له: «سر حتى تنزل أرض بني أسد، فأغر عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعهم» [2]، فسار إليهم أبو سلمة في المحرم [3]، فأغار على أنعامهم ففروا من وجهه فأخذها، ولم يلق عناء في تشتيت أعداء الإسلام، وعاد إلى المدينة مظفراً، وأبو سلمة يعد من السابقين إلى الإيمان ومن خيرة الرعيل الأول، وقد عاد من هذه الغزوة متعباً، إذ نَغَر جرحه الذي أصابه في «أُحد» فلم يلبث حتى مات [4]، ونلحظ في هذه السرية عدة أمور منها: الدقة في التخطيط الحربي عند

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣١٣).

(٢) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، (ص ١٦٢، ١٦٣).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٣).

(٤) فقه السيرة للغزالي (ص ٢٧٤).

النبي ﷺ حيث فرّق أعداءه قبل أن يجتمعوا، فذهلوا لمجيء سرية أبي سلمة وهم يظنون أن المسلمين قد أضعفتهم وقعة أحد وأذهلتهم عن أنفسهم، فأصيب المشركون بالرعب من المسلمين ووهنت عزيمتهم، وانشغلوا بأنفسهم عن مهاجمة المدينة، وتظهر دقة المسلمين في الرصد الحربي، واختيارهم التوقيت الصحيح والطريق المناسبة حيث وصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أي شيء رغم بعد المسافة، وكان هذا هو أهم عوامل نجاح المسلمين في هذه السرية، وتركت هذه السرية في نفوس الأعداء شعوراً مؤثراً على معنوياتهم، ألا وهو قناعتهم بقدرة المسلمين على الاستخفاء، والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة تجعلهم يمتلئون رعباً منهم ويتوقعون الإغارة في أي وقت، وهذا الشعور حملهم على الاعتراف بقوة المسلمين ومسالمتهم [١].

ثانياً: خالد بن سفيان الهذلي وتصدي عبد الله بن أنيس رضي الله عنه له -:

قام خالد بن سفيان الهذلي يجمِّع المقاتلة من هذيل وغيرها في عرفات، وكان يتهيأ لغزو المسلمين في المدينة مظاهرة لقريش، وتقرباً إليها، ودفاعاً عن عقائدهم الفاسدة، وطمعاً في خيرات المدينة، فأرسل رسول الله ﷺ الصحابي عبد الله بن أنيس الجهني إليه بعد أن كلّفه مهمة قتله [٢]، وهذا عبد الله بن أنيس يحدثنا بنفسه قال - رضي الله عنه -: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني وهو بعرنة فأته فاقتله»، قال: قلت: يا رسول الله انعته حتى أعرفه، قال: «إذا رأيته وجدت له قشعريرة».

قال: فخرجت متوشحاً بسيفي، حتى وقعت عليه بعرنة مع ظعن يرتاد لهن منزلاً، حين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله من القشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصلّيت وأنا أمشي نحوه أومي برأسي الركوع والسجود، فلما انتهيت إليه قال: من الرجل، قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا، قال: أجل أنا في ذلك، قال: فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه، فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني فقال: «أفلح الوجه» قال: قلت: قتلته يا رسول الله، قال: «صدقت» قال: ثم قام معي رسول الله فدخل في بيته فأعطاني عصاه، فقال: «أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس».

قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت أعطانيها رسول الله ﷺ، وأمرني أن أمسكها، قالوا: أولا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله لمَ أعطيتني هذه العصا؟ قال: «آية بيني وبينك يوم

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٢٣).
(٢) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣١٣).

القيامة، أن أقل الناس المختصرون [١] يومئذٍ يوم القيامة»، فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها فضمت معه في كفنه، ثم دفنا جميعاً [٢].

وفي هذا الخبر فوائد ودروس وعبر منها:

١ ـ دقة الرصد الحربي:

كان رسول الله ﷺ يعطي للجانب الأمني أهميته، ولذلك كان يتابع تحركات الأعداء، ويعد بعد ذلك الحلول المناسبة للمشكلات والأزمات في وقتها اللائم، ولذلك لم يمهل خالد بن سفيان حتى يكثر جمعه ويشتد ساعده، بل عمل على القضاء على الفتنة وهي في أيامها الأولى بحزم، وبذلك حقق للأمة مكاسب كبيرة وقلّل التضحيات المتوقعة من مجيء خالد بن سفيان بجيش لغزو المدينة، وهذا العمل يحتاج لقدرة في الرصد الحربي، وسرعة في اتخاذ القرار.

٢ ـ فراسة النبي ﷺ في اختيار الرجال:

كان ﷺ يتمتع بفراسة عظيمة في اختيار الرجال ومعرفة كبيرة لذوي الكفاءات من أصحابه، فكان يختار لكل مهمة من يناسبها، فيختار للقيادة من يجمع بين سداد الرأي وحسن التصرف والشجاعة، ويختار للدعوة والتعليم من يجمع بين غزارة العلم ودماثة الخلق والمهارة في اجتذاب الناس، ويختار للوفادة على الملوك والأمراء من يجمع بين حسن المظهر وفصاحة اللسان وسرعة البديهة، وفي الأعمال الفدائية يختار من يجمع بين الشجاعة الفائقة وقوة القلب والمقدرة على التحكم في المشاعر [٣]، فقد كان عبد الله بن أنيس الجهني قوي القلب ثبت الجنان، راسخ اليقين، عظيم الإيمان [٤]، وبجانب هذه الصفات العظيمة التي أهلته لهذه المهمة، فهناك سبب آخر فقد كان يمتاز بمعرفة مواطن تلك القبائل لمجاورتها ديار قومه (جهينة) [٥].

٣ ـ المكافأة على هذا العمل أخروية:

لم تكن المكافأة على هذا العمل العظيم الجريء مادية دنيوية، كما يتمناه الكثير ممن يقوم بالمهمات الشاقة في جيوش العالم قديماً وحديثاً، بل كانت أسمى من تلك وأعظم فهي وسام شرف أخروي قليل من يناله [٦]، فقد كان الصحابة ﷺ ـ وسائر المتقين لا ينتظرون جزاء في

---

(١) المختصرون: أو المتخصرون: والمراد هنا يأتون يوم القيامة ومعهم أعمال صالحة يتكئون عليها.
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٣١٩).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٢٧).
(٤) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٥٠، ٥١).
(٥) انظر: غزوة أحد، محمد باشميل (ص ٣١).
(٦) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ١٥٩، ١٦٠).

الدنيا ولو حصلوا على شيء من متاع الدنيا، فإنه لا يعتبر عندهم شيئاً كبيراً، وإنما ينتظرون جزاءهم في الآخرة، ولهذا كانت مكافأة عبد الله بن أنيس تلك العصا التي ستكون علامة بينه وبين رسول الله يوم القيامة وهذا يدل على علو مكانته في الآخرة [١].

٤ ـ بعض الأحكام الفقهية:

تضمن هذا الخبر بعض الأحكام والفوائد منها «صلاة الطالب» قال الخطابي: واختلفوا في صلاة الطالب، فقال عوام أهل العلم: إذا كان مطلوباً كان له أن يصلي إيماءً، وإذا كان طالباً نزل إن كان راكباً وصلى بالأرض راكعاً وساجداً [٢]، وكذلك قال ابن المنذر [٣]، أما الشافعي فشرط شرطاً لم يشترطه غيره، قال: إذا قل الطالبون عن المطلوبين وانقطع الطالبون عن أصحابهم فيخافون عودة المطلوبين عليهم فإذا كان هكذا كان لهم أن يصلوا يومئون إيماء.

قال الخطابي: وبعض هذه المعاني موجودة في قصة عبد الله بن أنيس [٤].

وقد ذكر بدر العيني في عمدة القاري مذاهب الفقهاء في هذا الباب، فعند أبي حنيفة إذا كان الرجل مطلوباً فلا بأس بصلاته سائراً، وإن كان طالباً فلا، وقال مالك وجماعة من أصحابه: هما سواء كل واحد منهما يصلي على دابته.

وقال الأوزاعي والشافعي في آخرين كقول أبي حنيفة، وهو قول عطاء والحسن والثوري، وأحمد وأبي ثور.

وعن الشافعي: إن خاف الطالب فوت المطلوب أومأ وإلا فلا [٥].

٥ ـ جواز الاجتهاد في زمن النبي ﷺ:

يجوز الاجتهاد في زمن النبي ﷺ، فعبد الله بن أنيس ـ رضي الله عنه ـ أداه اجتهاده أن يصلي هذه الصلاة، ولم ينكر عليه ﷺ، مما يدل على جواز الصلاة عند شدة الخوف بالإيماء [٦].

وهذا الاستدلال صحيح لا شك فيه، لأن عبد الله بن أنيس فعل ذلك في حياة النبي وذلك زمن الوحي، ومحال أن النبي ﷺ لم يطلع عليه [٧].

٦ ـ من دلائل النبوة:

فقد وصف رسول الله ﷺ خالد بن سفيان الهذلي لعبد الله بن أنيس وصفاً دقيقاً، دون أن

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٢٩).
(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ١٦٠).
(٣) المصدر نفسه، (ص ١٦٠).
(٤) معالم السنن للخطابي (٢/ ٤٢)، حاشية واحد على سنن أبي دواد.
(٥) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦/ ٢٦٣).
(٦) انظر: السرايا والبعوث، (ص ١٦١).
(٧) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي (٤/ ١٢٩).

يراه، حتى إن ابن أنيس عندما ردّ على رسول الله ﷺ متعجباً كما وقع في رواية الواقدي: (يا رسول الله ما فرِقت من شيء قط، قال له رسول الله ﷺ: «بلى آية ما بيني وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته» [١]، وقد وجد عبد الله بن أنيس خالد الهذلي على الصفة التي ذكر رسول الله ﷺ، يقول عبد الله: فلما رأيته هبته وفرِقت منه، فقلت: صدق الله ورسوله) [٢].

٧ ـ ما قاله عبد الله بن أنيس من الشعر في قتله لخالد الهذلي:

تركت ابن ثور كالحوار وحوله ... نوائح تفري كل جيب مقدّد
تناولته والظعْن خلفي وخلفه ... بأبيض من ماء الحديد المهند
أقول له والسيف يعجم رأسه ... أنا ابن أنيس فارساً غير قُعْدُد
وقلت له خذها بضربة ماجدٍ ... حنيف على دين النبي محمد
وكنت إذا همَّ النبي بكافرٍ ... سبقت إليه باللسان وباليد [٣]

ثالثاً: غدر قبيلتي عضل والقارة، وفاجعة الرجيع:

اختلفت مرويات سرية الرجيع فيما بينها كثيراً حول السبب الذي من أجله بعث النبي ﷺ، وفي الوقت الذي يورد البخاري بأنه إنما بعث عيناً لتجمع المعلومات عن العدو [٤]، فإن مرويات أخرى بأسانيد صحيحة ورد فيها أنه قدم على رسول الله ﷺ رهط من قبيلتي عَضَل والقارة المُضْريتين إلى المدينة وقالوا: إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام [٥]، ويظهر أن قبيلة هذيل قد سعت للثأر من المسلمين لخالد بن سفيان الهذلي فلجأت إلى الخديعة والغدر، وقد جزم الواقدي [٦] بأن السبب هو أن بني لحيان وهم حي من هذيل، مشتْ إلى عضل والقارة وجعلت لهم جُعلاً ليخرجوا إلى رسول الله ﷺ ويطلبوا منه أن يخرج معهم من يدعوهم إلى الإسلام ويفقههم في الدين، فيكمنوا لهم ويأسروهم ويصيبوا بهم ثمناً في مكة [٧].

وهكذا بعث الرسول ﷺ هذه السرية التي تتألف من عشرة من الصحابة [٨]، وجعل عليهم عاصم بن ثابت بن الأقلح أميراً، حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة أغار بنو لحيان ـ وهم قريب من مائتي مقاتل ـ فألجاؤهم إلى تل مرتفع بعد أن أحاطوا بهم من كل جانب، ثم أعطوهم

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٣٢).
(٢) انظر: البيهقي دلائل النبوة (٤/ ٤١)، من رواية موسى بن عقبة.
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤٣).
(٤) البخاري رقم (٤٠٨٦).
(٥) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٣٥٤، ٣٥٥).
(٦) المصدر نفسه، (١/ ٣٥٤، ٣٥٥).
(٧) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣١٤).
(٨) البخاري: رقم (٤٠٨٦).

الأمان من القتل، ولكن قائد السرية أعلن رفضه أن ينزل في ذمة كافر [١]، وقال عاصم بن ثابت: إني نذرت ألا أقبل جوار مشرك أبداً، فجعل عاصم يقاتلهم وهو يقول:

ما عِلَّتي وأنا جلد نابل ... النَّبْلُ والقوس لها بلابل [٢]
تزل عن صفحتها المعابل ... الموت حق والحياة باطل
وكل ما حمّ الإله نازل ... بالمرء والمرء إليه آئلُ
إن لم أقاتلكم فأمّي هابل [٣]

فرماهم بالنبل حتى فنيت نبله، ثم طاعنهم بالرمح حتى كُسر رمحه، وبقي السيف فقال: اللهم حميتُ دينك أول نهاري فاحْم لي لحمي آخره! وكانوا يجرِّدون كل من قتل من أصحابه، فكسر غمد سيفه ثم قاتل حتى قتل، وقد جرح رجلين وقتل واحداً وكان يقول وهو يقاتل:

أنا أبو سليمان ومثلي رامي ... ورثتُ مجداً معشراً كراماً

ثم شرعوا فيه الأسنّة حتى قتلوه، وكانت سُلافة بنت سعد بن الشُّهيد قد قتل زوجها وبنوها أربعة، قد كان عاصم قتل منهم اثنين، الحارث، ومسافعاً، فنذرت لئن أمكنها الله منه أن تشرب في قحف [٤] رأسه الخمر، وجعلت لمن جاء برأس عاصم مائة ناقة، قد علمت بذلك العرب وعلمته بنو لحيان فأرادوا أن يحتزوا رأس عاصم ليذهبوا به إلى سُلافة بنت سعد ليأخذوا منها مائة ناقة، فبعث الله تعالى عليهم الدَّبْر فحمته فلم يدْنُ إليه أحد إلا لدغت وجهه، وجاء منها شيء كثير لا طاقة لأحد به، فقالوا: دعوه إلى الليل، فإنه إذا جاء الليل ذهب عنه الدَّبْر، فلما جاء الليل بعث الله عليه سيلاً ولم يكن في السماء سحاب في وجه من الوجوه، فاحتمله فذهب به فلم يصلوا إليه [٥].

لقد قتل عاصم في سبعة من أفراد السرية بالنبال، ثم أعطى الأعراب الأمان من جديد للثلاثة الباقين، فقبلوا غير أنهم سرعان ما غدروا بهم بعدما تمكنوا منهم وقد قاومهم عبد الله بن طارق فقتلوه، واقتادوا الاثنين إلى مكة وهما خبيب وزيد بن الدثنة فباعوهما لقريش [٦] وكان ذلك في صفر سنة ٤ هـ [٧].

فأما خبيب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيب قد

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣١٤).
(٢) بلابل: جمع بلبلة وبلبال، وهو شدة الهم.
(٣) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٣٥٥).
(٤) المصدر نفسه، (١/ ٣٥٥).
(٥) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٣٥٦).
(٦) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣١٤).
(٧) جوامع السيرة لابن حزم (ص ١٧٦).

قتله يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بنات الحارث، استحدّ بها فأعارته، وغفلت عن صبي لها فجلس على فخذه، ففزعت المرأة لئلا يقتله انتقاماً منه، فقال خبيب: أتخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى، فكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سنَّ الركعتين عند القتل هو [١]، ثم قال: (اللهم أحصهم عدداً، وقاتلهم بدداً [٢]، ولا تبق منهم أحداً) ثم قال:

لقد أجمع الأحزاب حولي وألّبُوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدي العداوة جاهدٌ ... عليَّ لأنّي في وثاق بمضيع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبتُ من جذع طويل مُمَنَّع
إلى الله أشكو غُربتي بعد كُربتي ... وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبرني على ما يُرادُ بي ... فقد بضَّعُوا لحمي وقد ياس [٣] مطمعي
وقد خيروني الكفر، والموت دونه ... فقد ذرفت عيناي من غير مجزع
وما بي حذار الموت إني لميت ... وإن إلى ربي إيابي ومرْجعي
ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي شقٍّ كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلوٍ مُمَزَّع
فلست بمبدٍ للعدو تخشُّعاً ... ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي [٤]

فقال له أبو سفيان: أيسرُّك أن محمداً عندنا يُضرب عنقه وإنك في أهلك، فقال: لا والله، ما يسرُّني أني في أهلي، وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه [٥]، ثم قُتل وصلبوه، ووكّلوا به من يحرس جُثته، فجاء عمرو بن أمية الضمري فاحتمله بجذعه ليلاً، فذهب به ودفنه [٦]، وأما زيد بن الدثنّة فاشتراه صفوان بن أمية وقتله بأبيه (أمية بن خلف الذي قتل ببدر)، وقد سأله أبو سفيان قبل قتله: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي.

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٩٩).
(٢) أي متفرقين في القتل واحداً بعد واحد من التبديد.
(٣) ياس: لغة في يئس.
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٥).
(٥) المصدر نفسه، (٣/ ٢٤٥).
(٦) المصدر نفسه، (٣/ ٢٤٦).

فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً [١].

وقد عرفت هذه الحادثة المفجعة بالرجيع نسبة إلى ماء الرجيع الذي حصلت عنده، وفي هذه الحادثة دروس وعِبَر وفوائد منها:

١ ـ فوائد ذكرها ابن حجر:

وفي الحديث أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكِّن من نفسه ولو قتل، أنفةً من أن يجري عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدة، فإن أراد الأخذ بالرخصة فله أن يستأمن. قال الحسن البصري: لا بأس بذلك، وقال سفيان الثوري: أكره ذلك، وفيه الوفاء للمشركين بالعهد، والتورع عن قتل أولادهم، والتلطّف بمن أريد قتله وإثبات كرامة الأولياء، والدعاء على المشركين بالتعميم، والصلاة عند القتل وفيه إنشاء الشعر، وإنشاده عند القتل دلالة على قوة يقين خبيب وشدّته في دينه.

وفيه أن الله يبتلي عبده المؤمن بما شاء كما سبق في علمه ليثيبه، ولو شاء ربك ما فعلوه، وفيه استجابة دعاء المسلم وإكرامه حياً وميتاً، وغير ذلك من الفوائد مما يظهر بالتأمل، وإنما استجاب الله له من حماية لحمه من المشركين ولم يمنعهم من قتله، لما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حمايته من هتك حرمته بقطع لحمه [٢].

٢ ـ بين التسليم والقتال حتى الموت:

يستدل مما سبق أن للأسير في يد العدو أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكِّن من نفسه ولو قُتل، ترفعاً عن أن يجري عليه حكم كافر، كما فعل عاصم، فإن أراد الترخص، فله أن يستأمن مترقباً الفرصة مؤملاً الخلاص كما فعل خبيب وزيد، ولكن لو قدر الأسير على الهرب لزمه ذلك في الأصح، وإن أمكنه إظهار دينه بينهم، لأن الأسير في يد الكفار مقهور مهان، فكان من الواجب عليه تخليص نفسه من هوان الأسر ورقه [٣].

وهذا الحدث يفتح أمام المسلمين باباً واسعاً في التعامل مع الأحداث في اختيارهم الأسر إذا طلبوا مظلومين، أو اختيارهم القتال حتى الموت، ما دام الطالب لا يطلبهم بعدل وما دامت السلطة غير إسلامية [٤].

٣ ـ تعظيم سنّة النبي ﷺ:

وفي الحديث يظهر تعظيم الصحابة لسنّة النبي ﷺ، وكيف أن خبيباً مع أنه في أسر

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٠).
(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٤٤٤، ٤٤٥).
(٣) انظر: السيرة للبوطي (ص ١٨٨، ١٨٩).
(٤) انظر: الأساس في السنة لسعيد حوى (٢/ ٦٢٢).

المشركين، ويعلم أنه سيقتل بين عشية أو ضحاها، ومع ذلك كان حريصاً على سنّة الاستحداد، واستعار السكين لذلك، وفي هذا تذكير لمن يستهين بكثير من السنن، بل والواجبات بحجة أن لا ينبغي أن ينشغل المسلمون بذلك للظروف التي تمر بها الأمة، وفي الواقع لا منافاة بين تعظيم السنّة والدخول في شرائع الإسلام كافة [١].

٤ ـ الإسلام ينتزع الغدر والأحقاد:

عندما استعار خبيب موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته، قالت المرأة: فغفلت عن صبي لي تدرج إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه فلما رأته فزعت منه فزعة عرف ذلك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله [٢].

إنه موقف رائع يدل على سمو الروح، وصفاء النفس، والالتزام بالمنهج الإسلامي، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٤].

إنه الوفاء يتعلمه الناس ممن غدر بهم، إن الاستقامة طبيعة سلوك المسلم في حالتي الرخاء والشدّة [٣].

وفي قول خبيب ـ رضي الله عنه ـ: (ما كنت لأفعل إن شاء الله) يشير هذا الأسلوب في البيان العربي إلى أن هذا الفعل غير وارد ولا متصور ولا هو في الحسبان، في هذا الظرف الحاسم، الذي قد يتعلق فيه الاستثناء لموقع الضرورة، وإنقاذ المُهج، لكن المبدأ الأصلي، الوفاء والكف عن البراء، لا تنهض له هذه الاعتبارات الموهومة [٤]، وهذا مثل من عظمة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حين يطبقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم، وإن كانوا قد ظلموهم، وهذا دليل على وعيهم وكمال إيمانهم [٥].

٥ ـ حب النبي ﷺ عند الصحابة:

إن حظ الصحابة من حبه ﷺ كان أتم وأوفر، ذلك أن المحبة ثمرة المعرفة، وهم بقدره ﷺ ومنزلته أعلم وأعرف من غيرهم، فبالتالي كان حبهم له ﷺ أشد وأكبر [٦].

ففي حادثة الرجيع يظهر هذا الحب في الحوار الهادىء بين أبي سفيان وبين زيد بن الدثنة، إذ قال له أبو سفيان: أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني جالس في

(١) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية، أحمد فريد (ص ٢٣٤).
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٣٢٠) رواية غريبة.
(٣) انظر: معين السيرة (ص ٢٥٩).
(٤) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ١٥٣).
(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٣٨).
(٦) انظر: حقوق النبي على أمته، د. محمد التميمي (١/ ٣١٤).

أهلي [١].

وهذا الحب من الإيمان فقد قال ﷺ: «ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا للّه، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلقى في النار» [٢].

٦ ـ مما قاله حسان في ذم بني لحيان:

تأثر المسلمون بمقتل أصحاب الرجيع تأثراً بالغاً وكان حسان ـ رضي الله عنه ـ بشعره يعبر عن حال المسلمين، فمن يستحق الهجاء هجاه ومن يستحق المدح مدحه فقال في هجاء بني لحيان:

إن سرّك الغدر صرفاً لا مراج له ... فأت الرجيع فسَلْ عن دار لحيان
قوم تواصوا بأكل الجار بينهم ... فالكلب والقرد والإنسان مثلان
لو ينطق التّيس يوماً قام يخطبهم ... وكان ذا شرفٍ فيهم وذا شان [٣].

رابعاً: طمع عامر بن الطفيل في المسلمين وفاجعة بئر معونة (٤ هـ):

عامر بن الطفيل زعيم من زعماء بني عامر كان متكبراً متغطرساً، طامعاً في الملك، وكان يرى أن النبي ﷺ سوف تكون له الغلبة على الجزيرة العربية، ولذلك جاء هذا المشرك إلى النبي ﷺ وقال له: أخيِّرك بين ثلاث خصال: أن يكون لك أهل السهل، ولي أهل المدر، أو أن أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألفٍ وألفٍ [٤]، فرفض ﷺ تلك المطالب الجاهلية، وجاء إلى المدينة ملاعب الأسنة سيد بني عامر عم عامر بن الطفيل وقدّم إلى النبي ﷺ هدية، فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام فأبى أن يسلم، فقال النبي ﷺ: «فإني لا أقبل هدية من مشرك» فقال ملاعب الأسنة: فابعث إلى أهل نجد من شئت فأنا لهم جار، فبعث إليهم بقوم فيهم المنذر بن عمرو، وهو الذي يقال له ـ المُعنق ليموت ـ فاستجاش [٥] عليهم عامر بن الطفيل بني عامر فأبوا أن يطيعوه، وأبوا أن يخفروا ملاعب الأسنة، فاستجاش عليهم بني سليم، فأطاعوه، فأتبعهم بقريب من مائة رجل رام فأدركهم ببئر معونة، فقتلوهم إلا عمرو بن أمية [٦]. ومن حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنّة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار، يقال لهم القُرّاء، فيهم خالي حرام، يقرأون القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ١٥٤).
(٢) البخاري: كتاب الإيمان (١/ ٢١).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٧٠).
(٤) البخاري رقم (٤٠٩١) يقصد بألفٍ وألفٍ: الخيل.
(٥) استجاش: طلب لهم الجيش وجمعه.
(٦) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٣٢٢).

فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء، فبعثهم النبي ﷺ إليهم فعرضوا لهم فقتلوهم، قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللهم بلّغ عنا نبينا، أنّا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا، قال: وأتى رجل حراماً، خال أنس، من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه، فقال حرام: فزت ورب الكعبة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن إخوانكم قد قتلوا»، وإنهم قالوا: اللهم بلّغ عنا نبينا أنا قد لقيناك، فرضينا عنك، ورضيت عنا [(١)].

وفي هذه الحادثة المؤلمة والفاجعة المفجعة دروس وعبر وفوائد منها:

١ ـ لا بدّ للدعوة من تضحيات:

رأينا كيف غدر حلفاء هذيل بأصحاب الرجيع من القُرّاء الذين أرسلهم النبي ﷺ معلمين ومفقهين في غزوة الرجيع، وهاهنا عامر بن الطفيل يغدر بالسبعين قارئ الذين استنفروا للدعوة إلى الله والتفقيه في دين الله، في مجزرة رهيبة دنيئة، وذلك في يوم بئر معونة.

وقد تركت هذه المصائب في نفس رسول الله ﷺ آثاراً غائرة بعيدة الأعماق حتى إنه لبث شهراً يقنت في صلاة الفجر داعياً على قبائل سُلَيم التي عصت الله ورسوله [(٢)]، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قنت رسول الله ﷺ شهراً متتابعاً في الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وصلاة الصبح في دبر كل صلاة، إذا قال: «سمع الله لمن حمده»، من الركعة الأخيرة، يدعو على أحياء من بني سُلَيم على رعلٍ وذَكْوان وعُصيَّة، ويؤمّن من خلفه [(٣)]، قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: وذلك بدء القنوت وما كنا نقنت [(٤)].

لكن ذلك لم يفتَّ في عضد المسلمين، ولا فتَّر من حميتهم في الدعوة إلى الله، ولا كسر من عزمهم في مواصلة الدعوة وخدمة دين الله، لأن مصلحة الدعوة فوق الأنفس والدماء، بل إن الدعوة لا يكتب لها النصر إذا لم تُبذل في سبيلها الأرواح، ولا شيء يمكن للدعوة في الأرض مثل الصلابة في مواجهة الأحداث والأزمات، واسترخاص التضحيات من أجلها.

إن الدعوات بدون قوى أو تضحيات يوشك أن تكون بمثابة فلسفات وأخيلة، تلفها الكتب، وترويها الأساطير، ثم تطوى مع الزمن.

إن حادثتي الرجيع وبئر معونة تبصرنا بالمسؤولية الضخمة عن دين الله، والدعوة إليه، ووضعت نصب أعيننا نماذج من التضحيات العظيمة التي قدمها الصحابة الكرام من أجل عقيدتهم

---

(١) مسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد رقم (٦٧٧).
(٢) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ١٥١).
(٣) انظر: سنن أبي داود في الصلاة، باب «القنوت في الصلوات» (١٤٤٣).
(٤) البخاري، رقم (٤٠٨٨).

ودينهم ومرضاة ربهم.

إن للسعادة ثمناً وإن للراحة ثمناً، وإن للمجد والسلطان ثمناً، وثمن هذه الدعوة: دم زكيٌّ يهراق في سبيل الله من أجل تحقيق شرع الله ونظامه وتثبيت معالم دينه على وجه البسيطة [١].

٢ ـ فزت ورب الكعبة:

صاحب الكلمة حرام بن ملحان ـ رضي الله عنه ـ فعندما اخترق الرمح ظهره حتى خرج من صدره وأصبح يتلقى الدم بيديه، ويمسح به وجهه ورأسه ويقول: (فزت ورب الكعبة) [٢]، إن هذا المشهد يجعل أقسى القلوب وأعظمها تحجراً يتأثر، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الذين لا تصفُّر وجوههم فزعاً من الموت، وإنما يعلوها البشر والسرور، وتغشاها السكينة والطمأنينة [٣]، وهذا المنظر البديع الرائع الذي لا يتصوره العقل البشري المجرد عن الإيمان جعل جبار بن سلمى وهو الذي طعن حرام بن ملحان يتساءل عن قول حرام: «فزت ورب الكعبة وهذا جبار يحدثنا بنفسه فيقول: إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم يومئذٍ برمح بين كتفيه فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: «فزت ورب الكعبة! فقلت في نفسي: ما فاز؟ ألست قد قتلت الرجل؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: للشهادة، فقلت: فاز لعمر الله فكان سبباً لإسلامه [٤].

وهذا الموقف الخارق للعادة يدعونا للتساؤل: هل يتعرض الشهيد لألم الموت؟

وتأتينا الإجابة الشافية من رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى في قوله: «ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة» [٥].

فللشهيد منزلة خاصة عند الله، فجزاء الثمن الباهظ الذي يدفعه وهو روحه رخيصة في سبيل الله ﷻ، لم يبخسه أعدل العادلين حقه، فكافأه مكافأة بست جوائز كل واحدة منها تعدل الدنيا وما فيها، فعن المقدام بن معد يكرب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويحلَّى حلَّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويشفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه» [٦].

---

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ١٥٢).
(٢) البخاري في المغازي رقم (٤٠٩١).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٥٠).
(٤) انظر: السيرة النبوية الندوي (ص ٢٤٣، ٢٤٤)، وابن هشام (٣/ ٢٠٧).
(٥) انظر: صحيح سنن الترمذي للألباني (٢/ ١٣٣)، رقم (١٦٦٨).
(٦) انظر: صحيح سنن الترمذي للألباني (٢/ ١٢٩).

هذا بالإضافة إلى الوسام المميز المشرف الذي يأتي به يوم القيامة، وجرحه كهيئة يوم جُرِح: اللون لون الدم، والريح ريح مسك [١].

كما أن حياة الشهداء لا تنتهي بمجرد موتهم، بل هم أحياء يرزقون ويتنعمون عند ربهم [٢]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٩].

٣ ـ عدم معرفة النبي ﷺ للغيب:

إن حادثتي بئر معونة والرجيع وغيرهما تدل على أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، كما دلّت على ذلك أدلة أخرى منها قوله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعرَاف: ١٨٨].

فالله ﷻ وحده عالم الغيب، والرسل والملائكة لا يعلمون من الغيب إلا ما علّمهم ربّهم ﷻ [٣]: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجنّ: ٢٦].

٤ ـ الوفاء بالعهد:

وقع عمرو بن أمية الضمري ـ رضي الله عنه ـ أسيراً في بئر معونة، ولما علم عامر بن الطفيل أنه من مضر أطلقه، وجزَّ ناصيته، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه، فلما خرج عمرو قاصداً المدينة نزل في طريقه في ظل والتقى برجلين من بني عامر وكان معهم عقد من رسول الله وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر، فأمهلهما حتى ناما، عدا عليهما فقتلهما وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثُؤرة من بني عامر، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله فأخبره الخبر، قال رسول الله ﷺ: «لقد قتلت قتيلين لأدِيَنّهما» [٤]، وهذا موقف رفيع، فقد ودى ﷺ ذينك الرجلين العامريين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري لكونها يحملان عقداً منه ﷺ، ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما، وهذا يمثل منتهى القمة في الوفاء بالعهود.

قد كان بإمكان النبي ﷺ أن يعتبر عمل عمرو بن أمية جزءاً من الانتقام الذي ينبغي أن يُواجه به المجرمون المعتدون، ولكن ما ذنب الأبرياء حتى يؤاخذوا بجريرة المعتدين من قومهم؟

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٢/١٢٨).
(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٤٥).
(٣) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية (ص ٢٣٧).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٠٦).

إن التوجيهات الإسلامية الرفيعة دفعت بالمسلمين ونبيهم ﷺ إلى الرقي الأخلاقي الذي لا نظير له في دنيا الناس [١].

٥ ـ الصحابي الجليل عامر بن فهيرة ـ رضي الله عنه ـ:

لما قُتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أُمية الضَّمري، قال له عامر بن الطُفيل: من هذا؟ فأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فُهيرة. فقال: لقد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء، حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وُضع [٢].

٦ ـ حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يحرض على قتل عامر بن الطفيل:

كان حسان ـ رضي الله عنه ـ من رجالات المؤسسة الإعلامية، فكان يشن الحرب النفسية على الأعداء وكان بجانبه كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنهم ـ فلم يتركوا حدثاً من أحداث السيرة إلا قالوا فيه شعراً، وكل قصيدة للكافرين يردون عليها بقصائد، وقد علمنا ما أحدثه شعر حسان في طرد كعب بن أشرف اليهودي، وكان ﷺ يتعهد شعراء الدولة الإسلامية ويشجعهم على خوض هذا الباب من الجهاد، فعلى المسلمين المعاصرين قادة وزعماء وعلماء وفقهاء وجماعات أن يرعوا شعراءهم ويشجعونهم لخوض هذا الجهاد العظيم [٣].

ولما بلغ حسان خبر أصحاب بئر معونة نظم أبياتاً تناقلتها الركبان يحث فيها ربيعة بن عامر ملاعب الأسنة ويحرِّضه بعامر بن الطفيل بإخفاره ذمة أبي براء:

ألا من مبلغ عني ربيعاً ... فما أحدثت في الحادثان بعدي
أبوك أبو الفعال أبو براء ... وخالك ماجد حكم بن سعد
بني أم البنين ألم يرعكم ... وأنتم من ذوائب أهل نجد
تحكُّم عامر بأبي براءٍ ... ليخفره وما خطأ كعَمْد [٤]

فلما بلغ ربيعة بن أبي براء هذا الشعر، وكان الشعر عندهم أوجع من رشق النبل، وقطع السيوف للرقاب، وطعن النحور بالرماح، قام ربيعة بأخذ ثأر أبيه فضرب عامر بن الطفيل ضربة أشواه بها ـ أي لم تصب منه مقتلاً ـ فوثب عليه قومه، وقالوا لعامر: اقتص، فقال: قد عفوت، وإن عشت فسأرى رأيي فيما أتى إليَّ [٥]، ومما قاله حسان وهو يبكي قتلى بئر معونة، ويخص المنذر بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ:

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٥٠).
(٢) البخاري في المغازي رقم (٤٠٩٣).
(٣) انظر: السيرة النبوية الأساس في السنة وفقهها (٢/ ٦٥٦).
(٤) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٦٤).
(٥) المصدر نفسه، (٤/ ٦٤).

على قتلى معونة فاستهلّي ... بدمع العين سَحًّا غير نَزْر [١]
على خيل الرسول غداةَ لاقوا ... منايـاهم ولاقتْهم بقَدْر [٢]
أصابهم الفناء بعقد قوم ... تُحُوّن عقْد حَبْلهم بغَدْر [٣]
فيا لهفي لمنذر إذ تولّى ... وأعنَق في منيّته بصَبْر [٤]

٧ ـ مصير عامر بن الطفيل العامري:

استجاب الله لدعاء نبيه ﷺ، فقد دعا ﷺ على عامر بن الطفيل قال: «اللهم اكفني عامراً» [٥]، فأصيب الطاغية بمرض عضال وصفه ﷺ بقوله: «غدة كغدة البعير» [٦]، وسمّاه ﷺ بـ (الطاعون).. وهو وصف دقيق للطاعون الدبلى الذي يتميز (بارتفاع درجة الحرارة وتضخم العقد الليمفاوية في منطقة الأُرب وتحت الإبط، وكذا تضخم الطحال) [٧]، وهو ما أصيب به عامر بن الطفيل حتى أصبح حبيساً في بيت امرأة من قومه.

لقد أصيب عامر بن الطفيل وتلاشت أحلامه بالتملك على أهل المدن في الجزيرة العربية، أو خلافة النبي ﷺ، وأما تلك الجيوش التي هدد النبي ﷺ بها، فقد تحوَّلت إلى آلام تحبسه في بيت امرأة قد ولى عنه الناس ونفروا منه خشية العدوى ففقد صوابه، وصرخ بمن بقي حوله فقال: (غدة كغدة البكر في بيت امرأة من بني فلان، ائتوني بفرسي) فركبه فمات على ظهر فرسه [٨]، هلك ذلك الجبار العنيد كالمجنون بعد أن تطاير الناس من حوله خوفاً على أنفسهم من العدوى [٩].

المبحث الثاني

زواج النبي ﷺ بأم المساكين وأم سلمة وأحداث متفرقة

أولاً: زينب بنت خزيمة أم المساكين رضي الله عنها:

هي زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية، فهي من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمى في الجاهلية «أم المساكين» لإطعامها إياهم. تزوّجها رسول الله ﷺ في

(١) استهلّي: أسبلي. دمعك: السح. والنزر: القليل.
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٠٩).
(٣) تُحُون: تنقضي (بالبناء للمجهول).
(٤) أعنق: أسرع. والعنق: ضرب من السير السريع. ابن هشام (٣/ ٢٠٩).
(٥) انظر: السيرة النبوية الأساس في السنة وفقهها (٢/ ٦٣١).
(٦) انظر: السيرة النبوية، محمد الصوباني (ص ١٣٠).
(٧) انظر: تعليق الدكتور قلعجي على الدلائل (٣/ ٣٤٦).
(٨) انظر: السيرة النبوية للصوياني (ص ١٣١).
(٩) المصدر نفسه، (ص ١٣١).

رمضان على رأس واحد وثلاثين شهراً من الهجرة، فمكثت عنده ثمانية أشهر، وتوفيت في حياته ﷺ في آخر ربيع الأول على رأس تسعة وثلاثين شهراً، ودفنت في مدينة رسول الله ﷺ [١].

كانت زينب بنت خزيمة تحت عبد الله بن جحش بن رئاب الذي قتل في معركة أحد شهيداً في سبيل الله تعالى، فتزوّجها ﷺ إكراماً لها بعد أن فجعت بقتل زوجها في معركة أُحد، ولم يتركها أرملة وحيدة، فكأنه كافأها ﷺ على فضائلها بعد مصاب زوجها [٢].

ثانياً: زواج النبي ﷺ بأم سلمة رضي الله عنها:

هي هند بنت أبي أمية حذافة بن المغيرة القرشية المخزومية، كانت زوجة ابن عمها أبي عبد الله بن عبد الأسد، وزوجها هذا هو ابن عمة الرسول ﷺ، برّة بنت عبد المطلب، وهو أيضاً أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، وقد هاجرت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ وزوجها أبو سلمة إلى الحبشة فراراً بدينها من المشركين، ثم رجعا إلى مكة، وهاجرا إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله ﷺ والمسلمون [٣].

١ ـ حديث أم سلمة لأبي سلمة ـ رضي الله عنهما ـ:

قالت أم سلمة لأبي سلمة: بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة، ثم لم تُزوج إلا جمع الله بينهما في الجنة. فتعال أعاهدك ألا تزوَّج بعدي، ولا أتزوج بعدك. قال: أتطيعينني؟ قالت: نعم، قال: إذا مت تزوجي، اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني، لا يُحزنها، ولا يؤذيها. فلما مات قالت: من خير من أبي سلمة؟ فما لبث وجاء رسول الله ﷺ، فقام على الباب فذكر الخطبة إلى ابن أخيها، أو ابنها فقالت: أرد على رسول الله ﷺ، أو أتقدم عليه بعيالي، ثم جاء الغد فخطب [٤]

٢ ـ دعاء أم سلمة لمَّا توفي زوجها:

لمَّا توفي زوجها أبو سلمة من أثر جراحات أصابته في قتاله للمشركين، وكانت تحبه وتجلُّه، فلما مات أبو سلمة جاءت للنبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبا سلمة قد مات قال: «قولي: اللهم اغفر لي وله، وأعقبني [٥] منه عُقبى حسنة» قالت: فقلت: فأعقبني الله من هو خير لي منه، محمداً ﷺ [٦].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٦٦).
(٢) انظر: المفصل في أحكام المرأة، عبد الكريم زيدان (١١/ ٤٦٩).
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٢).
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٣)، وقال المحقق: أخرجه ابن سعد ورجاله ثقات.
(٥) وأعقبني: أي بدّلني وعوّضني منه، أي في مقابلته عقبى حسنة أي بدلاً صالحاً.
(٦) مسلم في الجنائز رقم (٩١٩).

٣ ـ حوار رسول الله ﷺ لأم سلمة عندما خطبها:

قال عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه ـ : إن أم سلمة لما انقضت عدّتها خطبها أبو بكر فردته، ثم خطبها عمر فردّته، فبعث إليها رسول الله ﷺ فقالت: مرحباً. أخبر رسول الله أني غيرى [١]، وأني مُصبية [٢] وليس أحد من أوليائي شاهداً.

فبعث إليها: «أما قولك: إني مصبية فإن الله سيكفيك صبيانك، وأما قولك: إني غيرى فسأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم إلا سيرضى بي» [٣]، وفي رواية: إني امرأة قد أدبر من سني فكانت إجابة رسول الله ﷺ لها: «وأما السن فأنا أكبر منك» [٤] وقد أحسن إليها ﷺ الجواب، وما كان إلا محسناً [٥].

قالت أم سلمة: يا عمر (أي ابنها) قم فزوِّج رسول الله ﷺ [٦]، قال ابن كثير في تعليقه على قول أم سلمة: قم يا عمر فزوِّج النبي ﷺ: تعني قد رضيت وأذنت، فتوهّم بعض العلماء أنها تقول لابنها عمر بن أبي سلمة وقد كان ذاك صغيراً لا يلي مثله العقد، وقد جمعت في ذلك جزءاً مفرداً بيّنت فيه الصواب في ذلك ولله الحمد والمنة، وإن الذي ولى عقدها عليه ابنها سلمة بن أبي سلمة وهو أكبر [٧] ولدها.

٤ ـ تأثيث رسول الله ﷺ لبيت زينب ومعاملته لها:

فلما وافقت على الزواج قال لها رسول الله ﷺ: «أما أني لا أنقصك مما أعطيت فلانة رحيين وجرتين ووسادة من أدم حشوها ليف» [٨].

وكانت أم سلمة قد ولدت طفلة من زوجها أبي سلمة بعد موته، فعندما تزوّجها ﷺ جعل يأتيها، فإذا جاء أخذت زينب فوضعتها في حجرها لترضعها، وكان ﷺ حيياً كريماً يستحي فيرجع ففعل ذلك مراراً [٩]، ففطن عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ وهو أخ لأم سلمة من أمها (سمية) الشهيدة التي قتلها أبو جهل، فأطلق قدميه نحو بيت أخته أم سلمة، فأخذ ابنة أخته ليسترضعها في بيته أو عند أحد النساء، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أين زناب؟» فقالت: قريبة ابن أبي أمية

---

(١) غيرى: كثيرة الغيرة.
(٢) مصبية: أي ذات صبيان وأولاد صغار.
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٣، ٢٠٤) وإسناده صحيح.
(٤) انظر: الطبقات لابن سعد (٨/ ٩٠) رجاله ثقات، لكنه مرسل.
(٥) انظر: المفصل في أحكام المرأة (١١/ ٤٧٠).
(٦) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٤) وإسناده صحيح.
(٧) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٩٢).
(٨) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٤).
(٩) المصدر نفسه، (٢/ ٢٠٤).

ـ ووافقها عندها [١] ـ أخذها عمار بن ياسر. فقال ﷺ: «إني آتيكم الليلة».

قالت أم سلمة: فقمت فوضعت ثقالي [٢]، وأخرجت حبات من شعير كانت في جرتي، وأخرجت شحماً فعصدته، ثم بات، ثم أصبح، وقال حين أصبح: إن بك على أهلك كرامة، فإن شئت سبّعت [٣] لك، وإن أسبع لك أسبع لنسائي [٤]، وإن شئت ثلثت ثم درت قالت: ثلّث [٥]، فأقام النبي ﷺ ثلاثة أيام عند أم سلمة ثم قال ﷺ: «للبكر سبع، وللثيب ثلاث» [٦]... هي مدة إقامة المتزوج عند زوجته إذا كان عنده غيرها.

أقام ﷺ عند أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ ثلاثة أيام سعيدة ثم رتّب لها يوماً كبقية زوجاته.

٥ ـ تغيير اسم برّة بنت أبي سلمة:

تقول تلك الطفلة اليتيمة ـ رضي الله عنها ـ : أن النبي ﷺ دخل على أم سلمة حين تزوّجها واسمي برة، فسمعها تدعوني برة، فقال: «لا تزكوا أنفسكم، فإن الله هو أعلم بالبرة منكم والفاجرة، سميها زينب».

فقالت أم سلمة: فهي زينب [٧].

وهذا من هدي النبي ﷺ فقد كان يحب الأسماء الجميلة، ولم يكن ﷺ يغير أسماء الأطفال فقط، بل كان للرجال والنساء والعجائز نصيب من ذلك الذوق النبوي الرفيع، فقد ذكر عند رسول الله ﷺ رجل يقال له: شهاب، فقال رسول الله ﷺ: «بل أنت هشام» [٨].

و(كان ﷺ إذا أتاه الرجل وله اسم لا يحبه حوّله) [٩] إلى اسم أجمل وألطف، وكان يفعل ذلك مع العجائز ﷺ، فهذه عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: من أنت؟ قالت: جثامة المزنية.

فقال: «بل أنت حسانة المزنية كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟».

قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

---

(١) أي: توافق مجيء النبي ﷺ مع زيارة تلك المرأة لأم سلمة.
(٢) هو ما يبسط تحت الرحى عند الطحن.
(٣) أي أقمت عندك سبعة أيام.
(٤) حديث حسن رواه ابن سعد (٨/ ٩٣).
(٥) انظر: السيرة النبوية كما جاءت من الأحاديث الصحيحة للصوياني (٣/ ١٣٦).
(٦) حديث صحيح، صحيح الجامع الألباني (٢/ ٩١٩).
(٧) سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه البخاري في الأدب المفرد (٨٢١).
(٨) سنده حسن رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٢٥).
(٩) حديث حسن رواه الطبراني (١٧/ ١١٩).

فقُرب إليه لحم، فجعل يناولها، فقلت: يا رسول الله لا تغمر يدك. فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: «إنها كانت تأتينا زمن خديجة وإن حسن العهد من الإيمان» (١).

٦ ـ الحكمة في زواج أم سلمة:

والحكمة في هذا الزواج، كما يقول صاحب تفسير المنار: ليس لأجل التمتع المباح له، وإنما كان لفضلها الذي يعرفه المتأمل بجودة رأيها يوم الحديبية، ولتعزيتها ـ أي بوفاة زوجها ـ (٢) ولا ننسى كذلك أن أم سلمة من بني مخزوم أعز بطون قريش، وهي التي كانت تحمل لواء الحرب والمواجهة لرسول الله ﷺ، ووراء هذا الزواج تفتيت حقد هذه القبيلة وتقريب قلوب أبنائها، وتَحَبُّبٌ إليهم ليدخلوا في الإسلام بعد أن صاروا أصهار رسول الله ﷺ (٣).

وفي هذا الزواج فقه النبي ﷺ في البناء الداخلي للأمة وتأدية حق الشهداء في زوجاتهن، وحق هذه الزوجات من أن ينهلن من نور النبوة ما يشاء الله أن ينهلن لكي يبلغن عن رسول الله (٤).

وكانت أم سلمة آخر من مات من أمهات المؤمنين، وكانت وفاتها سنة إحدى وستين، وقد روت عن رسول الله أحاديث يبلغ مسندها ثلاث مائة وثمانية وثمانين حديثاً، واتفق البخاري ومسلم على ثلاثة عشر، وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بثلاثة عشر (٥)، لقد ساهمت في نشر العلم والحكمة عن رسول الله، وبموتها انطفأ آخر مصباح من مصابيح أمهات المؤمنين طالما شع النور والهدى والعلم، فرضى الله عنها وأرضاها (٦).

ثالثاً: مولد الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ:

قال الإمام القرطبي ح: ولد الحسن في شعبان من السنة الرابعة، وعلي هذا ولد الحسين قبل تمام السنة من ولادة الحسن، ويؤيده ما ذكره الواقدي أن فاطمة علقت بالحسين بعد مولد الحسن بخمسين ليلة وجزم النووي في التهذيب أن الحسن ولد لخمس خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة (٧).

يقول علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: لما ولد الحسن سميته حرباً، فجاء رسول الله ﷺ

---

(١) سنده قوي رواه الحاكم (١/ ٦٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٥١٧).
(٢) انظر: تفسير المنار (٤/ ٣٧٢).
(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٥٦).
(٤) المصدر نفسه، (٣/ ٣٥٧).
(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٠).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٤٨، ٢٤٩).
(٧) انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١/ ١٠).

فقال: أروني ابني.. ما سميتموه؟ قلت: حرباً، قال ﷺ: «بل هو حسن» (١).

وهكذا غيّر ﷺ ذلك الاسم الحاد باسم جميل يدخل السرور والفرحة على القلوب.

فحمل المولود الجديد اسمه الجميل، وحمله ﷺ بين يديه وقلبه، وهذا أبو رافع يخبرنا عن ماذا فعل رسول الله ﷺ يقول: رأيت النبي ﷺ أذّن في أذني الحسن حين ولدته فاطمة بالصلاة (٢).

وحدثنا أبو رافع عن عقيقة الحسن فقال: لما ولدت فاطمة حسناً قالت: ألا أعقّ عن ابني بدم (بكبشين؟) قال ﷺ: «لا ولكن احلقي رأسه وتصدقي بوزن شعره من فضة على المساكين والأوفاض» وكان الأوفاض ناساً من أصحاب النبي ﷺ محتاجين في المسجد أو الصفة ـ ففعلت ذلك (٣).

وأحب ﷺ أن يقدم عقيقة الحسن، فعق عنه كبشين (٤).

وقد قال ﷺ في العقيقة: «الغلام مرتهن بعقيقته، يذبح عنه يوم السابع ويُسمَّى ويُحلق رأسه» (٥).

رابعاً: زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يتعلم لغة اليهود سنة ٤ هـ:

وفي هذه السنة تعلّم زيد بن ثابت كتابة اليهود، فعن خارجة بن زيد بن ثابت عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ أمره أن يتعلّم كتاب اليهود ليقرأه على النبي ﷺ إذا كتبوا إليه (٦)، فتعلّمه في خمسة عشر يوماً، وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ذُهب بزيد إلى رسول الله وقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بني النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشر سورة، فأعجب ذلك رسول الله وقال: «يا زيد تعلّم لي كتاب يهود، فإني والله ما آمن يهود على كتاب» قال زيد: فتعلّمت له كتابهم، ما مرّت خمس عشرة ليلة حتى حذقته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب (٧).

وبهذا الخبر يتضح أن للترجمان مكانة رفيعة في الدولة، إذ هو الذي يطلع على أسرار

---

(١) البخاري في الأدب (٢٨٦).
(٢) أبو داود رقم (٥١٠٥).
(٣) رواه الطبراني (٣/ ٣٠) بسند حسن.
(٤) انظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصوياني (٣/ ١٠٦).
(٥) انظر: صحيح سنن الترمذي، الألباني، رقم (١٥٢٢).
(٦) البخاري، كتاب الأحكام، رقم (٧١٩٥).
(٧) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٩).

الدولة وما يأتيها من مراسلات، أو ما ترسله من مخاطبات إذ لا يصح أن يطّلع كل إنسان على تلك الكتب الصادرة والواردة لئلا تختل الدولة وتكشف أسرارها، ولذلك أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود [١]، وتعلّم زيد بن ثابت لغة يهود في خمسة عشر يوماً يدل على ذكاء مفرط، وقوة حافظة، وقد كان ـ رضي الله عنه ـ ممن حفظ القرآن كله على عهد رسول الله، ومن أشهر كُتّاب الوحي بين يديه وهو الذي تولى كتابة القرآن وحده في الصحف في عهد الصديق، وكان أحد كاتبي المصاحف في عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ وأمر رسول الله ﷺ زيداً بتعلُّم لغة اليهود وكتابتهم يدل على أن الإسلام يحبب إلى المسلم أن يتعلم لغة غيره وكتابتهم، ويتعرّف على علومهم، ومعارفهم ولا سيما إذا دعت لذلك ضرورة [٢].

المبحث الثالث

إجلاء يهود بني النضير

أصاب يهود المدينة الخوف والرعب طيلة الفترة التي تفصل بين مقتل كعب بن الأشرف، وبين معركة أُحد التي جرت في شوال عام ٣ هـ، ولكن الهزيمة التي حلت بالمسلمين في تلك المعركة أحيت في نفوس المشركين والمنافقين الأمل من جديد بتحقيق مطامعهم وأغراضهم، وأزالت من قلوب اليهود الهلع على المصير، ومما ساهم في تبديد هذا الهلع عندهم مقتل أصحاب الرجيع، وبئر معونة، وبذلك لم يدم خوف اليهود طويلاً وعادوا إلى أساليب الدس والمكر والخداع، وشرعوا في حشد حصونهم بالسلاح والعتاد للانقضاض على المسلمين ودولتهم، ثم صمموا على قتل النبي ﷺ والغدر به [٣].

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

١ ـ تاريخ الغزوة:

يرى المحققون من المؤرخين أن غزوة بني النضير كانت بعد أُحد في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة، وقد رد ابن القيم على من زعم أن غزوة بني النضير بعد بدر بستة أشهر بقوله: وزعم محمد بن شهاب الزهري: أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر، وهذا وهم منه أو غلط عليه، بل الذي لا شك فيه أنها بعد أُحد والذي كانت بعد بدر بستة أشهر، هي غزوة بني قينقاع، وقريظة بعد الخندق، وخيبر بعد الحديبية [٤].

---

(١) انظر: زيد بن ثابت، كاتب الوحي وجامع القرآن، صفوان داوودي (ص ٨٠، ٨١).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٤٩).
(٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري (ص ١٨٨، ١٨٩).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٩).

وقال ابن العربي: والصحيح أنها بعد أُحد [١]، وإلى هذا الرأي ذهب ابن كثير [٢].

٢ ـ أسباب الغزوة:

هناك مجموعة من الأسباب حملت النبي ﷺ على غزو بني النضير وإجلائهم من أهمها:

أ ـ نقض بني النضير عهودهم التي تحتم عليهم ألا يؤووا عدواً للمسلمين ولم يكتفوا بهذا النقض، بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف في المدينة.

وقد حصل ذلك في غزوة السُويق [٣] حيث نذر أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكة ـ بعد غزوة بدر ـ نذراً ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو المدينة، فلما خرج في مائتي راكب قاصداً المدينة قام سيد بني النضير سلام بن مشكم بالوقوف معه وضيافته وأبطن له خبر الناس، ولم تكن مخابرات المدينة غافلة عن ذلك [٤].

قال موسى بن عقبة ـ صاحب المغازي ـ (كانت بنو النضير قد دسُّوا إلى قريش وحضُّوهم على قتال رسول الله ﷺ ودلوهم على العورة) [٥].

ب ـ محاولة اغتيال النبي ﷺ:

خرج النبي ﷺ في نفر من أصحابه عن طريق قباء إلى ديار بني النضير يستعينهم في دية القتيلين العامريين، اللذين ذهبا ضحية جهل عمرو بن أمية الضمري بجوار رسول الله ﷺ لهما، وذلك تنفيذاً للعهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين بني النضير حول أداء الديات، وإقراراً لما كان يقوم بين بني النضير وبين بني عامر من عقود وأحلاف.

استقبل بنو النضير النبي ﷺ بكثير من البشاشة والكياسة، ثم خلا بعضهم إلى بعض يتشاورون في قتله والغدر به، ويبدو أنهم اتفقوا على إلقاء صخرة عليه ﷺ، من فوق جدار كان يجلس بالقرب منه، ولكن الرسول ﷺ الذي كان برعاية الله وحفظه أدرك مقاصد بني النضير، إذ جاءه الخبر من السماء بما عزموا عليه من شر، فنهض وانطلق بسرعة إلى المدينة ثم تبعه أصحابه بعد قليل [٦].

لم تكن مؤامرة بني النضير التي أفشلها الله سبحانه وتعالى تستهدف شخص النبي ﷺ

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٧٦٥).
(٢) انظر: حديث القرآن عن الغزوات (١/ ٢٥٤).
(٣) غزوة السويق كانت بعد بدر وقد تحدثت عنها ـ ارجع إلى ص ٦٦.
(٤) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٢٨٤).
(٥) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٣٢).
(٦) انظر: الواقدي (١/ ٣٦٥)، التاريخ السياسي والعسكري (ص ١٩٠).

فحسب، بل كانت تستهدف كذلك دولة المدينة والدعوة الإسلامية برمّتها، لذا صمّم محمد ﷺ على محاربة بني النضير، الذين نقضوا العهد والمواثيق معه وأمر أصحابه بالتهيؤ لقتالهم والسير إليهم [١].

هذه الأسباب وغيرها أدّت إلى غزوة بني النضير وقد ذكر القرآن الكريم المؤمنين بهذه النعمة الجليلة، وكيف نجى الله نبيه ﷺ من مكر يهود بني النضير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

وقد أورد المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها:

أخرج الطبري عن أبي زياد قال: جاء رسول الله ﷺ بني النضير ليستعينهم في عقل أصحابه، ومعه أبو بكر وعمر وعلي فقال: «أعينوني في عقل أصابني»، فقالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه ينتظرون وجاء رأس القوم، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ ما قال، فقال لأصحابه: لا ترون أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه ولا ترون شراً أبداً.

فجاءوا إلى رحى لهم عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل عليه السلام فأقامه من ثم، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١] فأخبر الله نبيه ﷺ ما أرادوا به [٢].

وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وعكرمة وغير واحد [٣] أنها نزلت في شأن بني النضير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ووكلوا عمرو بن جحاش بذلك إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار، واجتمعوا عنده أن يلقى الرحى من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تماروا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله في ذلك هذه الآية [٤].

وقد رجح ابن جرير أن تكون الآية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النضير من كيد وسوء للنبي ﷺ وأصحابه فقال: (وأولى الأقوال بالصحة في تأويل ذلك قول من قال: عنى الله بالنعمة التي ذكر في هذه الآية نعمته على المؤمنين به ورسوله، التي أنعم بها عليهم في استنقاذه

---

(١) انظر: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة (ص ١٩٠).
(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٦/ ١٤٤، ١٤٥).
(٣) هذه الآثار وإن كان فيها ضعف إيمان يمكن أن تعضد لتصبح بمجموعها صالحة للاحتجاج بها. انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة (ص ١٤٥).
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١).

نبيّهم ﷺ، مما كانت يهود بني النضير همّت به من قتله وقتل من معه، يوم سار إليهم في الدية التي تحملها عن قتيلي عمرو بن أمية، وإنما قلنا أولى بالصحة في تأويل ذلك، لأن الله عقب ذلك برمي اليهود بسوء صنائعها وقبيح فعالها، وخيانتها ربها وأنبياءها) [١].

وقد وافق الدكتور محمد آل عابد ترجيح الطبري وقال: لا مانع أن تكون الآية الكريمة نزلت بعد تلك الحوادث مجتمعة، فقد تعددت الحوادث والمنزل واحد، كما قال العلماء [٢].

ومعنى الآية الكريمة: أي اذكروا نعمة الله عليكم التي من أكبر مظاهرها كفه عنكم أيدي اليهود، الذين هموا أن يمدوا أيديهم بالسوء إلى نبيكم، وشارفوا أن ينفذوا مؤامراتهم الخبيثة، ولكن الله أحبط مكرهم ونجى نبيكم ﷺ من شرورهم.

ثم أمر ـ سبحانه ـ بتقواه والتوكل عليه فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي اتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ في رعاية حقوق نعمته، ولا تخلوا بشكرها، فقد أراكم قدرته، وتوكلوا عليه وحده فقد أراكم عنايته بكم، وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون[٣].

ثانياً: إنذار بني النضير بالجلاء وحصارهم:

١ ـ إنذار بني النضير:

سجّلت معظم كتب السيرة النبوية خبر إنذار النبي ﷺ لبني النضير بالجلاء خلال عشرة أيام، وقد أرسل ﷺ محمد بن مسلمة إليهم وقال له: «اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي؛ لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم مما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رُئي بعد منكم ضربت عنقه» [٤] ولم يجدوا جواباً يردون به سوى أن قالوا لمحمد بن مسلمة: يا محمد، ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس، فقال محمد: تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، فقالوا: نتحمل فمكثوا أياماً يعدون العدة للرحيل [٥].

وفي تلك المدة أرسل إليهم عبد الله بن أُبي ابن سلول من يقول لهم: اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم [٦]، ولا تخرجوا فإن معي

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ١٤٤، ١٤٥).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٥١).
(٣) المصدر نفسه، (١/ ٢٥٢).
(٤) انظر: طبقات ابن سعد الكبرى (٢/ ٥٧)، مغازي الواقدي (١/ ٣٦٣ ـ ٣٧٠).
(٥) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٥٢).
(٦) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢١٢).

من العرب وممن انضوى إلى قومي ألفين فأقيموا، فهم يدخلون معكم حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم [١].

فعادت لليهود بعض ثقتهم وتشجع كبيرهم «حيي بن أخطب» وأرسل إلى النبي ﷺ جدي بن أخطب يقول له: إنا لن نريم ـ أي لن نبرح ـ دارنا، فاصنع ما بدا لك، فكبّر رسول الله ﷺ وكبّر المسلمون معه، وقال: «حاربت يهود» [٢].

٢ ـ ضرب الحصار وإجلاؤهم:

وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم، فتحركت جيوش المسلمين صوبهم وضربت عليهم الحصار لمدة خمس عشرة ليلة.

وأمر ﷺ بحرق نخيلهم، وقضى بذلك على أسباب تعلقهم بأموالهم وزروعهم، وضعفت حماستهم للقتال وجزعوا وتصايحوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يفعله، فما بال قطع النخيل وتخريبها؟

وألقى الله في قلوبهم الرعب، وأدرك بنو النضير أن لا مفر من جلائهم، ودب اليأس في قلوبهم وخاصة بعد أن أخلف ابن أبي وعده بنصرهم، وعجز إخوانهم أن يسوقوا إليهم خيراً أو يدفعوا عنهم شراً، فأرسلوا إلى النبي ﷺ يلتمسون منه أن يؤمنهم حتى يخرجوا من ديارهم.

فوافقهم النبي ﷺ على ذلك وقال لهم: «اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة» ـ وهي الدروع والسلاح ـ فرضوا بذلك [٣].

ونقض اليهود سقف بيوتهم وعمدها وجدرانها لكي لا ينتفع منها المسلمون.

وحملوا معهم كميات كبيرة من الذهب والفضة حتى أن سلام بن أبي الحقيق وحده حمل جلد ثور مملوءاً ذهباً وفضة، وكان يقول: هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها وإن كنا تركنا نخلاً ففي خيبر النخل [٤].

وحملوا أمتعتهم على ستمائة بعير، وخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن من خلفهم، حتى لا يشمت بهم المسلمون فقصد بعضهم خيبر وسار آخرون إلى أذرعات الشام [٥].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٥٣).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٤٦).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٥٧).
(٤) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٦٦).
(٥) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٦٥)، حديث القرآن الكريم (١/ ٢٥٧).

وقد تولى عملية إخراجهم من المدينة محمد بن مسلمة بأمر من رسول الله ﷺ [١].

وكان من أشرافهم الذين ساروا إلى خيبر: سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فلما نزلوها دان لهم أهلها [٢].

ثالثاً: الدروس والعِبَر في هذه الغزوة:

تحدّث القرآن الكريم عن غزوة بني النضير في سورة كاملة، وهي سورة الحشر، وقد سمّى حبر الأمة عبد الله بن عباس - ﷺ - سورة الحشر بسورة بني النضير، ففي البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس - ﷺ - سورة الحشر، قال: سورة النضير [٣].

وقد بيّنت هذه السورة ملابسات هذه الغزوة، وفصلت القول فيها، وبيّنت أحكام الفيء ومن هم المستحقون له؟ وأوضحت موقف المنافقين من اليهود، كما كشفت عن حقائق نفسيات اليهود، وضربت الأمثال لعلاقة المنافقين باليهود، وفي أثناء الحديث عن الغزوة وجه سبحانه خطابه إلى المؤمنين وأمرهم بتقواه وحذّرهم من معصيته، ثم تحدّث سبحانه عن القرآن الكريم وأسمائه وصفاته، وهكذا كان المجتمع يتربّى بالأحداث على التوحيد وتعظيم منهج الله، والاستعداد ليوم القيامة، وبالتأمل في السورة يمكننا استخراج بعض الدروس والعبر من أهمها:

١ - الثناء على الله وتمجيده:

ابتدأت السورة بالثناء على الله وأن الكون كله بجميع ما فيه من مخلوقات من إنسان، وحيوان، ونبات وجماد، ينزّه الله ويمجّده ويشهد بوحدانيته وقدرته وجلاله، وناطق بعظمته وسلطانه [٤].

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

كان استفتاح هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السموات والأرض، تسبّح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لعظمته، لأنه العزيز الذي قهر كل شيء فلا يمتنع عليه شيء ولا يستعصي عليه عسير.

الحكيم في خلقه وأمره فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتض حكمته، ومن ذلك نصره لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير، حين غدروا برسوله فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألفوها وأحبوها [٥].

---

(١) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٣٧٤)، اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٢١).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢١٢).
(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب «حديث بني النضير» رقم (٤٠٢٩).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٢٧).
(٥) انظر: تفسير السعدي (٣/ ٣٢٧).

٢ ـ الرعب جند من جند الله:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢ ـ ٤].

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يتبيّن له أن الله هو الذي أخرج يهود بني النضير من ديارهم إلى الشام، حيث أول الحشر في حين أن كل الأسباب المادية معهم حتى اعتقدوا أنه لا أحد يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها وقوتها.

لكن الله فاجأهم من حيث لم يحتسبوا، جاءهم من قلوبهم التي لم يتوقعوا أنهم يهزمون بها، فقذف فيها الرعب فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وهذا الأسلوب القرآني الفريد يربي الأمة بالأحداث والوقائع، وهو يختلف تماماً عن طريقة أهل السير، ويتمتاز بأنه يكشف الحقائق ويوضح الخفايا، ويربط الأحداث بفاعلها الحقيقي وهو رب العالمين، ومن ذلك أنها بيّنت أن الذي أخرج بني النضير هو الله جلّ جلاله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

واستمرت الآية الكريمة تبيّن أن يهود بني النضير حسبوا كل شيء وأحاطوا بجميع الأسباب الأرضية، لكن جاءتهم الهزيمة من مكان اطمأنوا إليه وهو أنفسهم، فإذا الرعب يأتي من داخلهم، فإذا بهم ينهارون في أسرع لحظة، لذلك يجب على كل إنسان عاقل أن يعتبر بهذه الغزوة وأن يعرف أن الله هو المتصرف في الأمور، وأنه لا تقف أمام قدرته العظيمة لا الأسباب ولا المسببات فهو القادر على كل شيء، فعلى الناس أن يؤمنوا به تعالى ويصلحوا أمرهم، فإذا اتبعوا أمر الله أصلح الله لهم كل شيء وأخرج أعداءهم من حيث لم يحتسبوا.

إن هذه الغزوة درس للأمة في جميع عصورها، تذكرهم أن طريق النصر قريب، وهو الرجوع إلى الله والاعتماد عليه والتسليم لشريعته، وتقديره حق قدره، فإذا عرف ذلك المؤمنون نصرهم الله ولو كان عدوهم قوياً وكثيراً، فإن الله لا يعجزه شيء وأقرب شاهد واقعي لذلك هو إجلاء بني النضير، وهي عبرة فليُعتبر بها والسعيد من اعتبر بغيره.

ثم أوضح سبحانه أنه لو لم يعاقبهم بالجلاء لعذّبهم في الدنيا بالقتل أما في الآخرة فلهم عذاب النار [1].

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٧٠، ٢٧١).

٣ ـ تخريب ممتلكات الأعداء:

لما نزل رسول الله ﷺ بجيشه وحاصر بني النضير، تحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه يا محمد: قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها؟ (١) فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥] (٢).

وقد توسع الشيخ محمد أبو زهرة في شرح هذه الآية فقال ما ملخصه بعد أن ساق آراء الفقهاء في ذلك:

والذي ننتهي إليه بالنسبة لما يكون في الحرب من هدم وتحريق وتخريب، أنه يستفاد من مصادر الشريعة وأعمال النبي ﷺ في حروبه:

١ ـ أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء، لأن الهدف من الحرب ليس إيذاء الرعية، ولكن دفع أذى الراعي الظالم وبذلك وردت الآثار.

٢ ـ أنه إذا تبيّن أن قطع الشجر وهدم البناء توجيه ضرورة حربية لا مناص منها؛ كأن يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين، فإنها لا مناص من قطع الأشجار، وهدم البناء على أنه ضرورة من ضرورات القتل، كما فعل النبي ﷺ هنا وفي حصن ثقيف.

٣ ـ أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخرج على أساس هذه الضرورات، لا على أساس إيذاء العدو والإفساد المجرد. فالعدو ليس الشعب إنما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا (٣).

٤ ـ تطوير السياسة المالية للدولة الإسلامية:

بيّن سبحانه وتعالى حكم الأموال التي أخذها المسلمون من بني النضير بعد أن تم إجلاؤهم فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦].

وبيَّن سبحانه وتعالى أن الأموال التي عادت إلى المسلمين من بني النضير قد تفضل بها عليهم بدون قتال شديد، وذلك لأن المسلمين مشوا إلى أعدائهم ولم يركبوا خيلاً ولا إبلاً، وافتتحها ﷺ صلحاً وأجلاهم وأخذ أموالهم ووضعها حيث أمره الله «فقد كانت أموال بني النضير

(١) المصدر السابق نفسه، (١/ ٢٧٤).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٨/ ٣٤).
(٣) انظر: خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة (٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٩).

مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون [١] بخيل ولا ركاب [٢]، فكانت للنبي ﷺ خاصةً، فكان ينفق على أهله نفقة سَنَة وما بقي يجعله في الكُراع [٣] والسلاح عدةً في سبيل الله» [٤].

ثم بيَّن المولى ﷻ أحكام الفيء في قرى الكفار عامة فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحَشر: ٨].

فكانت هذه الغنيمة خالصة لرسول الله ﷺ، ولهذا تصرف فيه ـ أي الفيء ـ كما يشاء، فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآيات.

ولما غنم ﷺ أموال بني النضير دعا ثابت بن قيس فقال: «ادع لي قومك» قال ثابت: الخزرج؟ فقال ﷺ: «الأنصار كلها» فدعا له الأوس والخزرج.

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم، وأثرتهم على أنفسهم ثم قال: «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليَّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم».

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: يا رسول الله بل نقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، وقالت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله [٥].

وقسم ما أفاء الله، وأعطى المهاجرين ولم يعط أحداً من الأنصار شيئاً، غير أبيْ دجانة، وسهل بن حنيف لحاجتهما [٦]، ومع أنه ﷺ يعلم الفيء كان خاصاً له إلا أنه جمع الأنصار وسألهم عن قسمة الأموال لتطييب نفوسهم، وهذا من الهدى النبوي الكريم في سياسة الأمور.

وكانت الغاية من هذا التوزيع تخفيف العبء عن الأنصار، وهكذا انتقل المهاجرون إلى دور بني النضير، وأعيدت دور الأنصار إلى أصحابها، واستغنى بعض المهاجرين مما يمكن أن يقال فيه: إن الأزمة بدأت بالانفراج [٧].

---

(١) مما لم يوجف عليه المسلمون: الإيجاف هو الإسراع ـ أي لم يُعدوا في تحصيله خيلاً.
(٢) الركاب: هي الإبل التي يُسافر عليها، ولا واحد لها من لفظها.
(٣) الكُراع: أي الدواب التي تصلح للحرب.
(٤) مسلم، كتاب الجهاد، باب «حكم الفيء» رقم (١٧٥٧).
(٥) مسلم: كتاب الجهاد، باب «حكم الفيء» (٣/ ١٣٧٦)، رقم (١٧٥٧).
(٦) انظر: شرح الزرقاني على المواهب (٢/ ٨٦).
(٧) انظر: السيرة النبوية لصالح الشامي، (ص ٢٢٢).

إن قسمة أموال بني النضير أوجد تطوراً كبيراً في السياسة المالية للدولة الإسلامية. فقد كانت الغنائم الحربية قبل هذه الغزوة تقسم بين المحاربين بعد أن تأخذ الدولة الإسلامية خمسها لتصرف في مصارف معينة حددها القرآن الكريم، وبعد غزوة بني النضير، أصبحت هناك سياسة مالية جديدة فيما يتعلق بالغنائم، وخلاصتها: أن الغنائم الحربية أصبحت حسب السياسة الجديدة على نوعين:

١ - غنائم استولى عليها المجاهدون بحد سيوفهم، وهذه الغنائم تقسم بين المجاهدين بعد أن تأخذ الدولة خمسها لتصرفه في مصارفه الخاصة.

٢ - غنائم يوقعها الله بأيدي المجاهدين دون قتال، وهذا النوع يختص رئيس الدولة الإسلامية بالتصرف فيه حسب ما يرى المصلحة في ذلك، يعالج به الأوضاع الاقتصادية في البلاد؛ فينقذ الفقراء من فقرهم، أو يشتري به سلاحاً أو يبنى به مدينة، أو يصلح به طرقاً أو... وهذا يعني أنه قد أصبح لرئيس الدولة الإسلامية ميزانية خاصة يتصرف فيها تصرفاً سريعاً حسب مقتضيات المصلحة [١]، وقد ذكر سبحانه وتعالى في الآيتين اللتين أوضحتا سياسته عليه الصلاة والسلام في تقسيم فيء بني النضير إذ اختص به أناساً دون آخرين العلة في ذلك في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

أي لكي لا يكون تداول المال محصوراً فيما بين طبقة الأغنياء منكم فقط، والتعليل لهذه الغاية يؤذن بأن سياسة الشريعة الإسلامية في شؤون المال قائمة في جملتها على تحقيق هذا المبدأ. وأن كل ما تفيض به كتب الشريعة الإسلامية من الأحكام المتعلقة بمختلف شؤون الاقتصاد والمال يُبتغى من ورائه إقامة مجتمع عادل تتقارب فيه طبقات الناس وفئاتهم، ويُقضى فيه على أسباب الثغرات التي قد تظهر فيما بينها، والتي قد تؤثر على سير العدالة وتطبيقها.

ولو طبقت أحكام الشريعة الإسلامية وأنظمتها الخاصة بشؤون المال من إحياء لشريعة الزكاة ومنع للربا، وقضاء على مختلف مظاهر الاحتكارات، لعاش الناس كلهم في بحبوحة من العيش، قد يتفاوتون في الرزق ولكنهم جميعاً مكتفون، وليس فيهم كلٌّ على آخر وإن كانوا جميعاً يتعاونون [٢]. وبعد بيان العلة في توزيع أموال الفيء عقب سبحانه بأمر المسلمين بأن يأخذوا ما أتى به الرسول ﷺ وأن ينتهوا عمّا نهاهم عنه، وأن هذا من لوازم الإيمان، وأمرهم بالتقوى، فإن عقابه شديد وأليم للعصاة. قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ

(١) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي، (ص ١٦٩).
(٢) انظر: فقه السيرة للبوطي: (ص ١٩٤).

﴿ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

أي: ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمركم بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شر وفساد.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ خافوا ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد لمن عصاه وخالف ما أمره به، قال المفسرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء، إلا أنها عامة في كل ما أمر الله به النبي ﷺ أو نهي عنه من واجب أو مندوب، أو مستحب، أو محرم فيدخل فيها الفيء وغيره [(١)]، وقد جاءت آيات كثيرة تربي الأمة على وجوب الانقياد لحكم الله تعالى، ولحكم رسوله ﷺ وذلك في كل الأمور قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم» [(٢)].

٥ ـ فضل المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان:

● فضل المهاجرين:

بيّنت الآيات الكريمة في سورة الحشر فضل المهاجرين على غيرهم، فهم لهم الدرجة الأولى، فقد اشتملت الآيات على أوصافهم الجميلة وشهد الله لهم بالصدق قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

● فضل الأنصار:

فقد وضحت الآيات فضل الأنصار وقد وصفهم الله بهذه الصفات قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

● فضل التابعين لهم بإحسان:

وهم المتتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون في السر والعلانية لإخوانهم

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٢٩/ ٢٨)، صفوة التفاسير (٣/ ٣٥١).

(٢) مسلم: كتاب الفضائل، باب «توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله» (٤/ ١٨٣٠).

الذين سبقوهم بالإيمان [١] قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠].

وهكذا تحدّثت السورة الكريمة عن صور مشرقة للمهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان.

٦ ـ موقف المنافقين في المدينة:

بيّنت الآيات الكريمة حالة المنافقين، ووضّحت موقفهم وتحالفهم مع إخوانهم من اليهود، وكشفت أيضاً موقفهم من المسلمين، وموقف اليهود ونفسياتهم [٢]، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

يخبرنا المولى ﷻ عن المنافقين كعبدالله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم بمناصرتهم، وقوله: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾ أي الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر، وهم يهود بني النضير، وجعلهم إخواناً له لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم، فهم إخوان في الكفر.

٧ ـ تحريم الخمر:

حرمت الخمر ليالي حصار بني النضير [٣] في ربيع الأول من السنة الرابع من الهجرة [٤]، وقد خضع تحريم الخمر لسنة التدرج، وكان ذلك التحريم على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي حتى نزلت الآيات الحاسمة في النهي عنها من سورة المائدة وفي ختامها ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال المؤمنون في قوة وتصميم: قد انتهينا يا رب [٥].

وفي قوله تعالى: ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

يقول سيد قطب رحمه الله: وهذا النص الذي بين أيدينا كان أول خطوة من خطوات التحريم، فالأشياء والأعمال قد لا تكون شراً خالصاً فالخير يلتبس بالشر، والشر يلتبس بالخير في هذه الأرض، ولكن مدار الحل والحرمة هو غلبة الخير أو غلبة الشر، فإذا كان الإثم في الخمر

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٩١).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ٢٦٤).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٥٣).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٠).
(٥) انظر: الخصائص العامة للإسلام للقرضاوي، (ص ١٨١).

والميسر أكبر من النفع، فتلك علة تحريم ومنع، وإن لم يصرح هنا بالتحريم والمنع.

هنا يبدو لنا طرف من منهج التربية الإسلامية القرآنية الربانية الحكيمة، وهو المنهج الذي يمكن استقراؤه في الكثير من شرائعه وفرائضه وتوجيهاته، ونحن نشير إلى قاعدة من قواعد هذا المنهج بمناسبة الحديث عن الخمر والميسر، عندما يتعلق الأمر أو النهي بقاعدة من قواعد التصور الإيماني أي بمسألة اعتقادية، فإن الإسلام يقضي فيها قضاء حاسماً منذ اللحظة الأولى.

ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهي بعبادة وتقليد، أو بوضع اجتماعي معقد، فإن الإسلام يتريث به ويأخذ المسألة باليسر والتدرج، ويهيء الظروف الواقعة التي تيسر التنفيذ والطاعة، فعندما كانت المسألة مسألة التوحيد أو الشرك أمضى أمره منذ اللحظة الأولى في ضربة حازمة جازمة لا تردد فيها ولا تلفت، ولا مجاملة فيها ولا مساومة، ولا لقاء في منتصف الطريق، لأن المسألة هنا مسألة أساسية للتصور، لا يصلح بدونها إيمان ولا يقام إسلام.

فأما الخمر والميسر فقد كان الأمر أمر عادة وألفة، والعادة تحتاج إلى علاج، فبدأ بتحريك الوجدان الديني المنطقي التشريعي في نفوس المسلمين، بأن الإثم في الخمر والميسر أكبر من النفع، وفي هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى، ثم جاءت الخطوة الثانية بآية سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا غَفُورٗا﴾ [النِّساء: ٤٣].

والصلاة في خمسة أوقات، معظمها متقارب، لا يكفي ما بينها للسكر والإفاقة! وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشرب، وكسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي، إذ المعروف أن المدمن يشعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه من مسكر أو مخدر في الموعد الذي اعتاد تناوله، فإذا تجاوز هذا الوقت وتكرر هذا التجاوز فترة حد العادة أمكن التغلب عليها، حتى إذا تمت هاتان الخطوتان جاء النهي الجازم الأخير لتحريم الخمر والميسر [1] ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المَائدة: ٩١].

٨ ـ لا يحيق المكر السيء إلا بأهله:

كان مكر اليهود، وتآمرهم على حياة الرسول ﷺ والدولة الإسلامية في غاية الخسة والوضاعة، وكانوا يريدون من مكرهم وغدرهم عزة ورفعة ومجداً وغلبة، لكن الله سخر منهم،

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/٢٢٩).

ونجى رسوله والمسلمين من مكرهم وأذلهم وأخزاهم، فزال مجدهم، وكسر غلبتهم، وخرب بيوتهم، ورحلهم عن ديارهم ولم يكلف ذلك المسلمين اصطداماً مسلحاً، ولا قتالاً ضارياً، ولكن الله قذف في قلوبهم الرعب والفزع، فطلبوا النجاة بأرواحهم في ذلة وخزي، مخلفين وراءهم ثروة وملكاً حازه المسلمون غنيمة باردة، وقال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] .

هذه عاقبة المكر السيء والغدر المشين، وانظر بعد ذلك كيف أشار القرآن الكريم إلى مواطن العبرة في هذه الموقعة، وإلى هذا التهديد الذي أعلنه لكل من يسلك سبل المكر المزري، والحقد المستبد [١] وقال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ .

ويظهر لي من الآية الكريمة الاعتبار من وجوه:

١ ـ إن الذي يقف في وجه الحق، ويصد الناس عنه، ويطارد دعاة الحق منهزم لا محالة، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عِمرَان: ١٢] .

٢ ـ الصراع بين الحق والباطل لا يتوقف وباق حتى يرث الله الأرض وما عليها، وستكون للباطل جولات وللحق جولات، ولكن العاقبة لأهل الحق في نهاية المطاف.

٣ ـ الاعتبار يكون بتجنب ما ارتكبه اليهود من خيانة وغدر حتى لا يحدث نفس المصير الذي حدث لهم من الهزيمة والذل والهوان [٢].

٩ ـ لا إكراه في الدين:

كان في بني النضير أناس من أبناء الأنصار قد تهودوا بسبب تربيتهم بين ظهراني اليهود، فأراد أهلوهم المسلمون منعهم من الرحيل معهم فأنزل الله ﷻ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦] .

روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت المرأة تكون مقلاتاً [٣] فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوِّده، فلما أُجليت بنو النضير كان فيهم أبناء الأنصار،

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ١٦٧، ١٦٨).
(٢) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس، (ص ١٧٩).
(٣) المُقلاة: التي لا يعيش لها ولد. سنن أبي داود (٣/ ١٣٣).

فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦][1].

المبحث الرابع

غزوة ذات الرقاع

أولاً: تاريخها وأسبابها، ولماذا سميت بذات الرقاع:

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخ هذه الغزوة، وقد ذهب البخاري [2] إلى أنها كانت بعد خيبر، وذهب ابن إسحاق [3] إلى أنها بعد غزوة بني النضير، وقيل بعد الخندق سنة أربع، وعند الواقدي [4]، وابن سعد [5] أنها كانت في المحرم سنة خمس.

وقد ذكر البوطي أن تاريخ الغزوة كان في السنة الرابعة للهجرة بعد مرور شهر ونصف تقريباً على إجلاء بني النضير، وقال بأن هذا الرأي ذهب إليه أكثر علماء السير والمغازي [6] وإليه ذهبت.

وأما سبب الغزوة: ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسلمين، ذلك الغدر الذي تجلى في مقتل أولئك الدعاة السبعين الذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى فخرج عليه الصلاة والسلام قاصداً قبائل محارب وبني ثعلبة [7]، وقد ذكر الدكتور محمد أبو فارس أن قادماً قدم المدينة فأخبر المسلمين أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله ﷺ، فما كان منه ﷺ إلا أن سار إليهم في عقر دارهم على رأس أربعمائة مقاتل وقيل سبعمائة مقاتل، ولما وصل رسول الله ﷺ إلى ديارهم خافوا وهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم وحضرت الصلاة فخاف المسلمون أن يغيروا عليهم فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف وعاد رسول الله إلى المدينة [8].

وقد حققت هذه الحملة العسكرية أغراضها وتمكنت من تشتيت الحشد الذي قامت به غطفان لغزو المدينة، فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درساً بأن المسلمين ليسوا قادرين فقط

---

(١) أبو داود: كتاب الجهاد، «باب الأسير يكره على الإسلام» (٣/ ١٣٢)، قم (٢٦٨٢).
(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب «غزوة الرقاع» (٥/ ٦٢)، رقم (٤١٢٨).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٢٥).
(٤) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٣٩٥).
(٥) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ٦١).
(٦) انظر: فقه السيرة النبوية، (ص ١٩٤).
(٧) المصدر نفسه، (ص ١٩٤، ١٩٥).
(٨) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس، (ص ١٤).

على سحق من تحدثه نفسه بالاقتراب من المدينة، بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدو نفسه وضربه في عقر داره [١].

وسميت بذات الرقاع لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع اتقاء الحر، وقيل لأنهم رقعوا راياتهم، وقيل لشجرة كان اسمها ذات الرقاع [٢]، وقيل لأن المسلمين نزلوا في أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة، فسميت لذلك [٣]، والصحيح: لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق.

فقد روى الشيخان بسنديهما عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع النبي ﷺ في غزوة ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، وكنا نُلفُّ على أرجلنا الخِرَق، فسميت غزوة ذاتِ الرقاع، لما كنا نعصب بالخرق على أرجلنا [٤].

ثانياً: صلاة الخوف، وحراسة الثغور:

١ ـ صلاة الخوف:

أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ صلاة الخوف في هذه الغزوة، وبيّن القرآن الكريم صفة الصلاة ساعة مواجهة العدو، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

فقد صلى المسلمون صلاة الخوف، وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفت معه، وطائفة في وجه العدو. فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت في صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم [٥].

وفي رواية مسلم: فصلى بطائفةٍ ركعتين، ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، قال: فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتان [٦].

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، (ص ٧٧، ٧٨).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٠٩).
(٣) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ١٧٠).
(٤) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب «غزوة ذات الرقاع» رقم (٤١٢٨).
(٥) انظر: السيرة في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٢٥).
(٦) مسلم، كتاب الصلاة، باب «صلاة الخوف» رقم (٨٤٣).

قال الدكتور البوطي: ووجه التوفيق بين الحديثين أنه عليه الصلاة والسلام صلى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرة فصلاها مرة على النحو الأول، وصلاها مرة أخرى على النحو التالي.

وكانت هذه الصلاة بمنطقة نخل التي تبعد عن المدينة بيومين [١]، ودلَّ تشريع صلاة الخوف على أهمية الصلاة، فحتى في قلب المعركة لا يمكن التساهل فيها، ولا يمكن التنازل عنها مهما كانت الظروف وبذلك تندمج الصلاة والعبادة بالجهاد وفق المنهاج النبوي في تربية الأمة، الذي استمد من كتاب الله تعالى، فلا يوجد أي انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد [٢].

٢ ـ حراسة الثغور:

عندما رجع الجيش الإسلامي من غزوة ذات الرقاع، سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دماً في أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلاً وقد جعل الرسول ﷺ رجلين على الحراسة أثناء نومهم، وهما عباد بن بشر، وعمار بن ياسر،فضرب عباداً بسهم وهو قائم يصلي فنزعه، ولم يقطع صلاته حتى رشقه بثلاثة سهام، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه فقال: سبحان الله هلا نبهتني، فقال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها، فلما تابع علي الرمي ركعت فآذنتك، وأيم الله، لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها [٣]، ومن هذه الحادثة يمكننا أن نستخلص دروساً وعِبراً منها:

أ ـ اهتمام النبي ﷺ بأمن الجنود، ويظهر ذلك في اختياره رجلين من خيار الصحابة لحراسة الجيش ليلاً.

ب ـ تقسيم الحراسة ونلاحظ أن الرجلين اللذين أنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليل نصفين، نصفاً للراحة ونصفاً للحراسة، إذ لا بدّ من راحة جسم الجندي بعض الوقت.

جـ ـ التعلق بالقرآن الكريم وحب تلاوته؛ فقد كان حبه للتلاوة قد أنساه آلام السهام التي كانت تنغرس في جسمه وتثج الدم منه بغزارة [٤].

د ـ الشعور بمسؤولية الحراسة: فلم يقطع عباد صلاته لألم يشعر به، وإنما قطعها استشعاراً بمسؤولية الحراسة التي كلف بها، وهذا درس بليغ في مفهوم العبادة والجهاد [٥].

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، (ص ٢٠٧).
(٢) انظر: التربية القيادية (٢/ ٣٠٣، ٣٠٤).
(٣) انظر: السيرة في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٢٧).
(٤) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس، (ص ٣٠، ٣١).
(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٢٨).

هـ - استراتيجية مكان الحراسة: اختار النبي ﷺ فم الشعب مكان إقامة الحرس، وكان هذا الاختيار في غاية التوفيق لأنه المكان الذي يتوقع العدو منه لمهاجمة المعسكر.

و - قرب مهجع الحرس من الحارس: ولذلك استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم، ولو كان المهجع بعيداً عن الحارس لما تمكن من إيقاظ أخيه، وبالتالي يحدث ما لا تحمد عقباه [١].

ثالثاً: شجاعة الرسول ﷺ ومعاملته لجابر بن عبد الله:

١ - شجاعة الرسول ﷺ:

عندما قفل رسول الله ﷺ من غزوة ذات الرقاع أدركته القائلة في واد كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون الشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة علق بها سيفه، قال جابر بن عبد الله: (فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال لي: من يمنعك مني؟ فقلت له: «الله» فها هو ذا جالس.. لم يعاقبه رسول الله واسم الأعرابي: غورث بن الحارث) [٢].

وقد عاهد غورث رسول الله ﷺ أن لا يقاتله ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فخلى سبيله فجاء إلى أصحابه فقال: (جئتكم من عند خير الناس) [٣].

وفي هذه القصة دليل على نبوة محمد ﷺ وفرط شجاعته، وقوة يقينه وصبره على الأذى وحلمه على الجهال، وفيها جواز تفرق العسكر في النزول ونومهم إذا لم يكن هناك ما يخافون منه [٤].

إن هذه القصة ثابتة وصحيحة، وهي تكشف عن مدى رعاية الباري وحفظه لنبيه ﷺ، ثم هي تزيدك يقيناً بالخوارق التي أخضعها الله ﷻ له ﷺ، مما يزيدك تبصراً ويقيناً بشخصيته النبوية، فقد كان من السهل الطبيعي بالنسبة لذلك المشرك وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبي ﷺ وهو أعزل غارق في غفلة النوم أن يهوي به عليه فيقتله، وإنك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتزاز بنفسه والزهو بالفرصة الذهبية التي مكّنته من رسول الله ﷺ في قوله: من يمنعك مني؟ فما الذي طرأ بعد ذلك حتى عاقه عن القتل؟ [٥].

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس، (ص ٣٢).
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٢٦).
(٣) المصدر نفسه، (ص ٤٢٧).
(٤) انظر: فتح الباري ٣١٧/١٥، نقلاً عن السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٢٧).
(٥) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٠٠).

ليس لهذا تفسير إلا العناية الإلهية، والإعجاز الإلهي الذي يتخطى العادات والسنن ويتجاوز قوى الناس لنصرة نبيه، والذود عن دعوته [١]، فقد كانت العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب وأن تقذف في ساعديه تياراً من الرجفة، فيسقط من يده السيف ثم يجلس متأدباً مطرقاً بين يدي رسول الله ﷺ، وما حدث مصداقاً لقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المَائدة: ٦٧] .

فليست العصمة المقصودة في الآية أن لا يتعرض الرسول ﷺ لأذى أو محنة من قومه، إذ تلك هي سنّة الله في عباده، كما قد علمت، وإنما المراد من العصمة أن لا تطول إليه أي يد تحاول اغتياله وقتله لتُغتال فيه الدعوة الإسلامية التي بُعث لتبليغها [٢].

٢ ـ معاملته ﷺ لجابر بن عبد الله:

قال جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ قال: جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال: «مالك يا جابر؟» قال: قلت: يا رسول الله أبطأني جملي هذا، قال: «أنخه» فأنخته، وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال: «أعطني هذه العصا من يدك، أو اقطع لي عصاً من شجرة» قال: ففعلت. قال: فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات، ثم قال: «اركب»، فركبت فخرج ـ والذي بعثه بالحق ـ يواهق ناقته مواهقة (أي يسابقها ويعارضها في المشي لسرعته).

في هذه القصة صورة جميلة ورفيعة لخلق رسول الله ﷺ مع أصحابه من حيث لطف الحديث، والتواضع الرفيع، ورقة الحديث وفكاهة المحاورة ومحبة شديدة لأصحابه، والوقوف على أحوالهم والمواساة في مشكلاتهم الاجتماعية مادياً ومعنوياً، فقد شعر الرسول ﷺ أن سبب تأخر جابر عن الركب هو ضعف جمله الذي لا يملك غيره لبؤس حاله، حيث إن والده مات شهيداً في أُحد وترك له مجموعة من البنات والأولاد ليرعاهم، وهو مقل في الرزق.

المبحث الخامس

غزوة بدر الموعد، ودومة الجندل

أولاً: غزوة بدر الموعد:

تنفيذاً للموعد الذي كان أبو سفيان قد اقترحه في أعقاب معركة أُحد، والتزام الرسول ﷺ

---

(١) انظر: دروس وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ١٧٨).

(٢) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٠٠).

بذلك، فقد خرج النبي ﷺ من المدينة على رأس جيش من أصحابه قوامه ألف وخمسمائة مقاتل بينهم عشرة من الخيالة، وذلك في ذي القعدة سنة ٤ هـ، وحمل لواء الجيش علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فوصلوا بدراً فأقاموا فيها ثمانية أيام بانتظار وصول قوات المشركين من قريش بقيادة أبي سفيان بحسب الموعد بين الطرفين، غير أن أحداً من المشركين لم يصل إلى بدر، وكان أبو سفيان قد جمع قوات قريش وحلفائها التي تألفت من ألفي مقاتل معهم خمسون فرساً، فلما وصلوا إلى مر الظهران نزلوا على مياه مجنة على بعد أربعين ميلاً من مكة، ثم عاد بهم أبو سفيان إلى مكة [١] بعد أن خطب فيهم وقال: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا [٢]، وأقبل مخشي بن عمرو الضمري وهو الذي وادع رسول الله ﷺ على بني ضمرة في غزوة ودّان، فالتقى برسول الله ﷺ في بدر وقال: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «نعم، يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك»، قال: لا والله يا محمد مالنا بذلك منك من حاجة [٣].

ففي هذا اللقاء أكد رسول الله ﷺ على معنى كبير في إظهار قوة المسلمين، وأن العقد الذي كان بين الفريقين يستمر بعامل قوة المسلمين لا بعامل ضعفهم وبناء على طلب الطرف الثاني، وفي هذا ما فيه من القوة للمسلمين وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم [٤]، لقد كانت تحركات الجيش الإسلامي من المدينة حتى بدر مناورة رائعة ناجحة أثبت وجوده وأعطى الدليل القاطع لأعداء الإسلام داخل المدينة وخارجها، أنه أصبح أقوى قوة مرهوبة في الجزيرة العربية، من حيث كثرة العدد وقوة التنظيم وجودة التسلح، قد هاب الجيش الإسلامي ونكل عن حربه بعد أن خرج للقائه بموجب ميعاد سابق حدده (في أُحد) قائد عام جيش مكة [٥].

إن الحملة الإعلامية التي قام بها المشركون لإثبات انتصارهم في أُحد وتفوقهم الحربي قد انتكست على رؤوسهم، وأصبحوا مثار السخرية عند العرب، وثبت للناس أن ارتباك المسلمين للمفاجأة في أحد وسقوط القتلى منهم لا يعني انهزامهم ولا ضعفهم العسكري [٦] فقد ساهمت هذه الغزوة في المحافظة على السمعة العسكرية للمسلمين [٧]، وكسبوا انتصاراً معنوياً عظيماً على أعدائهم بدون قتال، وشاركوا في الموسم التجاري ببدر وربحوا في

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٣١٨، ٣١٩).
(٢) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، (ص ٨٨).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٢).
(٤) انظر: معين السيرة للشامي، (ص ٢٦٤، ٢٦٥).
(٥) انظر: غزوة الأحزاب، باشميل، (ص ٨٨، ٨٩).
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٦٦).
(٧) انظر: التربية القيادية (٣/ ٤٦٣).

تجارتهم ربحاً طيباً [١].

لقد كان لإخلاف قريش الموعد أثر في تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم [٢].

ثانياً: دومة الجندل:

كانت غزوة دومة الجندل من ضمن حركة تثبيت أركان الدولة الإسلامية، فبعد غزوة بدر الموعد تحركت القوات الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ نحو قضاعة التي كانت تنزل شمال قبائل أسد وغطفان، وفي حدود الغساسنة الموالين للدولة الرومية (بيزنطة) ولها إشراف على سوق (دومة الجندل) الشهير (على بعد ٤٥٠ كيلومتراً شمال المدينة) كانت هذه القبيلة أول من احتك بها المسلمون فغزاها رسول الله تلك الغزوة المعروفة بغزوة دومة الجندل (ربيع الأول ٥ هـ - أغسطس ٦٢٦ م) [٣] فقد وصلت الأنباء إلى المدينة بتجمع بعض القبائل عند دومة الجندل للإغارة على القوافل التي تمر بهم، والتعرض لمن في القافلة بالأذى والظلم، كما وردت الأنباء بأنهم يفكرون في القرب من المدينة لعجم عودها [٤].

إن دومة الجندل تعتبر بلاداً نائية بالنسبة للمدينة المنورة، لأنها تقع على الحدود بين الحجاز والشام، وفي منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربي، وهي على مسير ست عشرة ليلة من المدينة، ولو أن المسلمين أغفلوا أمرها وسكتوا على وجود هذا التجمع فيها ما لامهم أحد ولا ضرهم هذا التجمع في شيء على المدى القريب، ولكن النظرة السياسية البعيدة والعقلية والعسكرية الفذة أوجبت على المسلمين أن يتحركوا لفض هذا التجمع [٥] والقضاء عليه قبل أن يستفحل شأنه للأسباب الآتية، وكذلك بغية تحقيق بعض الأهداف:

١ - لأن السكوت على هذا التجمع وما شاكله يؤدي بلا شك إلى تطوره واستفحاله، ثم يؤدي بعد ذلك إلى إضعاف قوة المسلمين وإسقاط هيبتهم، وهو الأمر الذي يجاهدون من أجل استرداده.

٢ - وجود مثل هذا التجمع في الطريق إلى الشام قد يؤثر على الوضع الاقتصادي للمسلمين، فلو أن المسلمين سكتوا على هذا التجمع لتعرضت قوافلهم أو قوافل القبائل التي تحتمي بهم للسلب والنهب، مما يضعف الاقتصاد ويؤدي إلى حالة من التذمر والاضطراب.

٣ - وهناك أمر أهم من الأمرين السابقين وهو فرض نفوذ المسلمين على هذه المنطقة كلها،

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٦٧).
(٢) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة للعمري، (ص ٩١).
(٣) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة للشجاع، (ص ١٤٤).
(٤) انظر: تأملات في سيرة الرسول لمحمد الوكيل، (ص ١٦٩).
(٥) انظر: تأملات في سيرة الرسول، (ص ١٦٩).

وإشعار سكانها بأنهم في حمايتهم وتحت مسؤوليتهم، لذلك فهم يؤمنون لهم الطرق، ويحمون لهم تجارتهم ويحاربون كل إرهاب من شأنه أن يزعجهم أو يعرضهم للخطر [١].

٤ ـ حرمان قريش من أي حليف تجاري قد يمدها بما تحتاج من التجارة، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التجارية المهمة، لأن ظهور الدولة الإسلامية بهذه القوة يؤثر على نفسية قريش العدو الأول للدولة الإسلامية، ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها [٢].

٥ ـ الحرص على إزالة الرهبة النفسية عند العرب الذين كانوا يحلمون بمواجهة الروم، والتأكيد عملياً للمسلمين بأن رسالتهم عالمية [٣] وليست مقصورة على العرب. ورأى بعض المؤرخين كالذهبي، والواقدي، ومحمد أحمد باشميل، وغيرهم أن من أهداف تلك الغزوة إرهاب الروم الذين تقع المنطقة التي وصل إليها ﷺ بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليال من عاصمة ملكهم الثانية دمشق [٤].

لهذا ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج وخرج في ألف من أصحابه، وكان يسير الليل، ويكمن بالنهار حتى يخفى مسيره [٥]، ولا تشيع أخباره وتنقل أسراره، وتعقبه عيون الأعداء [٦].

واتخذ له دليلاً من بني عذرة يسمى مذكور، وسار حتى دنا من القوم، عندئذٍ تفرقوا ولم يلق رسول الله ﷺ منهم أحداً فقد ولوا مدبرين، وتركوا نعمهم وماشيتهم غنيمة باردة للمسلمين، وأسر المسلمون رجلاً منهم، وأحضروه إلى الرسول فسأله عنهم فقال: هربوا لما سمعوا بأنك أخذت نعمهم، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فأسلم وأقام بساحتهم أياماً، وبعث البعوث وبث السرايا، وفرق الجيوش فلم يصب منهم أحد، وعاد المسلمون إلى المدينة، وفي أثناء عودتهم وادع الرسول عيينة بن حصن الفزاري واستأذن عيينة رسول الله في أن ترعى إبله وغنمه في أرض قريبة من المدينة على ستة وثلاثين ميلاً منها.

إن وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين، واستئذانه في أن يرعى بإبله وغنمه في أرض بينها وبين المدينة ستة وثلاثون ميلاً ـ أي ما يقرب من خمسة وستين كيلومتراً ـ لدليل قاطع على ما وصلت

(١) انظر: تأملات في سيرة الرسول، (ص ١٦٩).
(٢) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع، (ص ١٤٤، ١٤٥).
(٣) انظر: دراسات في عهد النبوة، (ص ١٤٤).
(٤) انظر: غزوة الأحزاب، باشميل، (ص ٩٣)، تاريخ المغازي للذهبي، (ص ٢٥٨).
(٥) انظر: تأملات في سيرة الرسول، (ص ١٧٠).
(٦) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس (ص ٤٠).

إليه قوة المسلمين وعلى شعورهم بالمسؤولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للناس في هذه المنطقة، وأن هذه المناطق النائية كانت ضمن الدولة الإسلامية، وأن الدولة أصبحت منيعة ليس في مقدور أحد أن يعتدي عليها، ولو كان ذلك في استطاعة أحد لكان هو عيينة بن حصن الذي كان يغضب لغضبه عشرة آلاف فتى [١].

كانت غزوة دومة الجندل بعيدة عن المدينة من جهة الشام، إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد على خمس ليال، وقد كانت بمثابة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكان البوادي الشمالية وأطراف الشام الجنوبية، وأحسوا بقوة الإسلام وسطوته، كما كانت لقيصر وجنده، كما أن سير الجيش الإسلامي هذه المسافات الطويلة قد كان فيه تدريب له على السير إلى الجهات النائية، وفي أرض لم يعهدوها من قبل، ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلامية للفتوحات العظيمة في بلاد آسيا وإفريقية فيما بعد [٢].

كانت خطة الرسول ﷺ في هذه الغزوة ترمي إلى أهداف عديدة، فهي غزوة وحرب استطلاعية تمسح الجزيرة العربية، وتتعرف على مراكز القوى فيها، وهي حرب إعلامية تأتي على أعقاب بدر الموعد، وتستثمر انتصاراتها، وهي حرب عسكرية تريد أن تصد هجوماً محتملاً على المسلمين حيث ضوى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة، وهي حرب سياسية تريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة وتستبيحها [٣].

كانت هذه الغزوة دورة تربوية رائعة وقاسية وشاملة يقودها رسول الله ﷺ وبين يديه ألف من أصحابه، فيتلقون فيها كل لحظة دروساً في الطاعة والانضباط، ودروساً في التدريب الجسمي والعسكري والتحمل لمشاق الحياة وصعوباتها، وأحكاماً وفقهاً في الحلال والحرام، وعمليات صهر وتذويب لقواعد الجيش الإسلامي في بوتقة واحدة خارج إطار العشيرة وخارج كيان القبيلة، حيث أخذت تفد إلى المدينة عناصر كثيرة من أبناء القبائل المجاورة، والتخلي عن الأطر القبلية وعصاباتها للانصهار في بوتقة الأمة الواحدة التي تجعل الولاء لله ورسوله، وفوق هذا كله تتيح الفرصة لجيل بدر الرائد أن يقوم بمهمة التربية للوافدين الجدد وتعليمهم وتثقيفهم، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النفوس، ومن له صلة بمعسكر النفاق من خلال مراقبة تصرفاته وسلوكه. إنها ليست ساعات محدودة وأياماً معدودة بل هي دورة قرابة شهر، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كل الطبائع وكل النوازع فيتلقاها عليه الصلاة والسلام ليصوغها على ضوء الإسلام ويعلم الجيل الرائد فن القيادة وعظمة السياسة.

---

(١) انظر: تأملات في سيرة الرسول، (ص ١٧٠).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة، (ص ٢٥١، ٢٥٢).
(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٧٢).

كانت معركة صامتة، وتربية هادئة، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصحراء يتربى ويتثقف ويتدرب، ويمتحن ويقوّم، ليكون هذا استعداداً لمعارك قادمة [١]، وفي غيابه في غزوة دومة الجندل عيّن ﷺ سباع بن عرفطة الغفاري والياً على المدينة في تجربة جديدة، فهو ليس أوسياً ولا خزرجياً ولا قرشياً، بل من غفار التي كانت تعتبر من سراق الحجيج عند العرب، فلا بدّ لهذا الجيل أن يتربّى على الطاعة والانضباط للأمير أيّاً كان شأن هذا الأمير، وهذا يدل على عظمة المنهج النبوي في تربية الأمة والارتقاء بها، وعلى عظمة قيادة النبي وفراسته في أتباعه وثقته فيهم ومعرفته لمواهبهم، فهو ﷺ على معرفة بكفاءة سباع بن عرفطة الغفاري وعبقريته وقدرته على الإدارة الحازمة، فكان ﷺ يربي أصحابه وهو غائب عن المدينة، لكي يهيمن منهج رب العالمين على المسلمين، ويصنع منها أمة واحدة تسمع وتطيع لكتاب ربها وسنة نبيها [٢].

المبحث السادس

غزوة بني المصطلق

أولاً: من هم بنو المصطلق ومتى وقعت الغزوة وأسبابها؟

١ ـ بنو المصطلق:

هم بطن [٣] من خزاعة، والمصطلق [٤] جدهم، وهو جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السماء [٥].

٢ ـ تاريخ الغزوة:

اختلف العلماء في ذلك؛ ذهبت طائفة إلى أنها كانت في شعبان من السنة الخامسة، ومن هؤلاء العلماء موسى بن عقبة، وابن سعد، وابن قتيبة، والبلاذري، والذهبي، وابن القيم، وابن حجر العسقلاني، وابن كثير رحمهم الله، ومن المحدثين الخضري بك، والغزالي، والبوطي.

وكانت وفاة سعد بن معاذ في أعقاب غزوة بني قريظة، وغزوة بني قريظة كانت في ذي القعدة من السنة الخامسة على القول الراجح، فيتعين أن تكون غزوة بني المصطلق قبلها [٦].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٧٣).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٣٧٤).
(٣) فرع.
(٤) المُصطلق: بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملتين وكسر اللام.
(٥) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول(١/ ٣١١).
(٦) من أراد مزيداً من التفصيل فليرجع إلى مرويات غزوة بني المصطلق، (ص ٩٧).

٣ ـ أسباب هذه الغزوة:

من أهم الأسباب لهذه الغزوة:

أ ـ تأييد هذه القبيلة لقريش واشتراكها معها في معركة أحد ضد المسلمين، ضمن كتلة الأحابيش التي اشتركت في المعركة تأييداً لقريش.

ب ـ سيطرة هذه القبيلة على الخط الرئيسي المؤدي إلى مكة، فكانت حاجزاً منيعاً من نفوذ المسلمين إلى مكة [١].

ج ـ أن الرسول ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون له، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار ينظم جموعهم، فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فهزمهم شر هزيمة [٢].

٤ ـ أحداث غزوة بني المصطلق:

عندما شعر رسول الله ﷺ بحركة بني المصطلق المريبة أرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي للتأكد من نيتهم، وأظهر لهم بريدة أنه جاء لعونهم فتأكد من قصدهم فأخبر الرسول ﷺ بذلك.

وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة خرج الرسول ﷺ من المدينة، في سبعمائة مقاتل [٣]، وثلاثين فارساً [٤]، متوجهاً إلى بني المصطلق، ولما كان بنو المصطلق ممن بلغتهم دعوة الإسلام، واشتركوا مع الكفار في غزوة أحد، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فقد روى البخاري [٥] ومسلم [٦] «أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارُّون ـ أي غافلون ـ وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقَاتِلتهم، وسبى سبيَهُم وأصاب يومئذٍ (قال يحيى: أحسبه قال: جويرية (أو قال: البتّة) ابنة الحارث [٧].

ثانياً: زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها:

قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث وكانت بركة على قومها، ولنسمع قصتها من السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ حيث قالت: «لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في سهم لثابت بن قيس بن

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية للعلي، (ص ٣٣٢).
(٢) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣١٥).
(٣) انظر: تاريخ الإسلام، المغازي للذهبي، (ص ٢٥٩).
(٤) انظر: الواقدي (١/ ٤٥٠).
(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٣٣).
(٦) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب «جواز الإغارة على الكفار، (٣/ ١٣٥٦)، رقم (١٧٣٠).
(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٣٣).

شماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ لتستعينه في كتابتها.

قالت: فوالله ما هو أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال: «فهل لك في خير من ذلك»

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: «أقضي عنك كتابك وأتزوجك»

قالت: نعم يا رسول الله قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوّج جويرية بنت الحارث.

فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما بأيديهم.

قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها [١].

وجاء الحارث بن أبي ضرار ـ بعد الوقعة ـ بفداء ابنته إلى المدينة فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأسلم [٢].

تعتبر غزوة بني المريسيع من الغزوات الفريدة المباركة التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها. وكان الحدث الذي أسلمت القبيلة من أجله هو أن الصحابة حرروا وردوا الأسرى الذين أصابوهم إلى ذويهم بعد أن تملكوهم باليمين في قسم الغنائم، واستكثروا على أنفسهم أن يتملكوا أصهار نبيهم عليه الصلاة والسلام، وحيال هذا العتق الجماعي وإزاء هذه الأريحة الفذة دخلت القبيلة كلها في دين الله.

إن مرد هذا الحدث التاريخي وسببه البعيد هو حب الصحابة للنبي ﷺ وتكريمهم إياه وإكبارهم شخصه العظيم، وكذلك يؤتى الحب النبوي هذه الثمار الطيبة، ويصنع هذه المآثر الفريدة في التاريخ.

لقد كان زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث له أبعاده، وتحققت تلك الأبعاد بإسلام قومها، فقد كان الزواج منها من أهدافه الطمع في إسلام قومها، وبذلك يكثر سواد

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٦٠، ١٦١).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣١٧).

المسلمين، ويعز الإسلام وهذه مصلحة إسلامية بعيدة يسر الله هذا الزواج وباركه، وحقق الأمل البعيد المنشود من ورائه فأسلمت القبيلة كلها بإسلام جويرية، وإسلام أبيها الحارث فقد عاد هذا الزواج على المسلمين بالبركة والقوة، والدعم المادي والأدبي معاً للإسلام والمسلمين [١].

أصبحت جويرية بنت الحارث زوجة لسيد المرسلين وأماً للمؤمنين، فكانت ـ رضي الله عنها ـ عالمة بما تسمع، وعاملة بما تعلم، فقيهة عابدة، تقية ورعة، نقية الفؤاد، مضيئة العقل، مشرقة الروح، تحب الله ورسوله وتحب الخير للمسلمين.

وكانت ـ رضي الله عنها ـ تروي من حديث رسول الله، ناقلة لحقائق الدين من خزائنها عند من تنزلت عليه ﷺ، يرويه عنها سدنة العلم من علماء الصحابة رضي الله عنهم، لينشروه في المجتمع المسلم علماً وعملاً، وفي عامة المجتمع الإنساني دعوة وهداية [٢]، فقد حدث عنها ابن عباس، وعبيد بن السباق، وكريب مولى ابن عباس ومجاهد، وأبو أيوب يحيى بن مالك الأزدي بلغ مسندها في كتاب بقي بن مخلد سبعة أحاديث [٣]، منها أربعة في الكتب الستة، عند البخاري حديث، وعن مسلم حديثان، وقد تضمنت مروياتها أحاديث في الصوم في عدم تخصيص يوم الجمعة بالصوم، وحديث في الدعوات في ثواب التسبيح وفي الزكاة في إباحة الهدية للنبي وإن كان المهدي ملكها بطريق الصدقة، كما روت في العتق، وبسبعة أحاديث شريفة خلدت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث ـ رضي الله عنها ـ اسمها في عالم الرواية، لتضيف إلى شرف صحبتها للنبي ﷺ وأمومتها للمسلمين، تبليغها الأمة سنن المصطفى ﷺ ما تيسر لها ذلك [٤].

وكانت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث ـ رضي الله عنها ـ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، القانتات الصابرات في مجال مناجاة الله تعالى وتحميده وتقديسه وتسبيحه [٥]، فهذه أم المؤمنين جويرية تحدثنا عن ذلك فتقول: إن النبي ﷺ خرج من عندها بكرةً حين صلى الصبح وهي في مسجدها [٦] ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة. فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم. قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وُزِنَت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته» [٧].

---

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ١٩٩، ٢٠٠).
(٢) انظر: محمد رسول الله، محمد صادق عرجون (٤/ ٢٥٠).
(٣) انظر: دور المرأة في خدمة الحديث، آمال قرداش، (ص ٨٨).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٨٨، ٨٩).
(٥) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٢٥٠).
(٦) مسجدها: المكان الذي تصلي فيه في بيتها.
(٧) مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار، رقم (٢٧٢٦).

وقد توفيت رضي الله عنها سنة خمسين، وقيل ست وخمسين [١].

ثالثاً: محاولة المنافقين في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج في غزوة بني المصطلق عدد كبير من المنافقين مع المسلمين وكان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة، لكنهم لما رأوا اطراد النصر للمسلمين خرجوا طمعاً في الغنيمة [٢].

وعند ماء المريسيع كشف المنافقون عن الحقد الذي يضمرونه للإسلام والمسلمين، فكلما كسب الإسلام نصراً جديداً ازدادوا غيظاً على غيظهم، وقلوبهم تتطلع إلى اليوم الذي يهزم فيه المسلمون لتشفى من الغل، فلما انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار، فلما أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرسول ﷺ في نفسه وأهل بيته، فشنوا حرباً نفسية مريرة من خلال حادثة الإفك التي اختلقوها، ولنترك الصحابي زيد بن أرقم وهو شاهد عيان ومشارك في الحادث الأول يحكي خبر ذلك [٣] قال: (كنت في غزاة [٤] فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي [٥]، فذكره للنبي ﷺ فدعاني، فحدّثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذّبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذّبك رسول الله ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] فبعث إلى رسول الله ﷺ فقرأ، فقال: «إن الله قد صدقك يا زيد» [٦].

ويحكي شاهد عيان آخر هو جابر بن عبد الله الأنصاري ما حدث عند ماء المريسيع، وأدى إلى كلام المنافقين لإثارة العصبية وتمزيق وحدة المسلمين، قال: (كنا في غزاة فكسع [٧] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟»

قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: «دعوها فإنها

---

(١) انظر: الطبقات لابن سعد (٨/ ١٢١)، خليفة بن خياط تاريخه، (ص ٢٣٤).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣١٨).
(٣) انظر: السيرة الصحيحة للعمري (٢/ ٤٠٨).
(٤) غزاة: صرحت الروايات الأخرى بأنها بني المصطلق.
(٥) يريد بعمه سعد بن عبادة وهو رأس الخزرج وليس عمه حقيقة.
(٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٨).
(٧) كسع: ضربه برجله.

منتنة». فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» (١).

وفي رواية قال عمر بن الخطاب: مُر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا، ولكن أذن بالرحيل» وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها فارتحل الناس (٢).

وقد مشى عبد الله بن أُبي ابن سلول إلى رسول الله حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه.

فلما سار رسول الله ﷺ لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلّم عليه ثم قال: يا نبي الله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أوبلغك ما قال صاحبكم؟»

قال: وأي صاحب يا رسول الله؟

قال: «عبد الله بن أبيّ؟»

قال: وما قال؟

قال: «زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت هو الذليل وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله، أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه يرى أنك استلبت ملكه.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً.

وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي، ونزلت السورة التي ذكر فيها المنافقون في ابن أبيّ ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول الله بأُذن زيد بن أرقم ثم قال: «هذا الذي أوفى الله بأُذنه» (٣).

إن هذه الحادثة من السيرة النبوية العطرة مليئة بالدروس والعِبر فمن أهم تلك الدروس:

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٩).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣١٩).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣١٩، ٣٢٠).

١ ـ الحفاظ على السمعة السياسية ووحدة الصف الداخلية:

وهذا الدرس يظهر في قوله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» (١).

إنها المحافظة التامة على السمعة السياسية، والفرق كبير جداً بين أن يتحدث الناس عن حب أصحاب محمد محمداً، ويؤكدون على ذلك بلسان قائدهم الأكبر أبي سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدا محمداً (٢). وبين أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، ولا شك أن وراء ذلك محاولات ضخمة ستتم في محاولة الدخول إلى الصف الداخلي في المدينة من العدو، بينما هم يائسون الآن من قدرتهم على شيء أمام ذلك الحب وتلك التضحيات (٣).

ولم يقف النبي ﷺ موقفاً سلبياً حيال تلك المؤامرة التي تزعمها ابن سلول لتصديع الصف المسلم، وإحياء نعرات الجاهلية في وسطه، بل اتخذ إزاءها الخطوات الإيجابية التالية:

أ ـ سار الرسول ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً (٤).

وبهذا التصرف البالغ الغاية في السياسة الرشيدة قضى على الفتنة قضاءً مبرماً، ولم يدع مجالاً للحديث فيما قال ابن أُبيّ.

ب ـ لم يواجه النبي ﷺ ابن سلول ومؤامراته المدبّرة بالقوة واستعمال السلاح، حرصاً على وحدة الصف المسلم، وذلك لأن لابن أبيّ أتباعاً وشيعة مسلمين مغرورين، ولو فتك به لأرعدت له أنوف، وغضب له رجال متحمسون له، وقد يدفعهم تحمسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أي مصلحة للمسلمين ولا للإسلام، وإنها لسياسة شرعية حكيمة رشيدة في معالجة المواقف العصيبة في حزم وقوة أعصاب وبعد نظر (٥)، وهذه البراعة في الحكمة والسياسة وتدبير الأمور متفرعة عن كونه ﷺ نبياً ورسولاً إلى الناس (٦)، لكي تقتدي به الأمة في تصرفاته العظيمة.

ولقد كان لتسامح الرسول مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أُبيّ ابن

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٩).
(٢) انظر: التربية القيادية (٣/ ٤٦٣).
(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٤٦٣).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٥).
(٥) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٢٠٢).
(٦) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، (ص ٤٠٩).

سلول كلما أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنفونه، ويعرضون قتله على النبي ﷺ، والرسول يأبى ويصفح، فأراد رسول الله أن يكشف لسيف الحق عن آثار سياسته الحكيمة فقال: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم لقتلته!!» فقال عمر: قد ـ والله ـ علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري [١].

٢ ـ بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا:

كان لابن أُبي ابن سلول ولد مؤمن مخلص يسمى عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول، فلما علم بالأحداث ونزول السورة أتى رسول الله فقال له: يا رسول الله! بلغني أنك تريد قتل أبي ابن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج، ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا» [٢].

ولما وصل المسلمون مشارف المدينة تصدى عبد الله لأبيه عبد الله بن أبي، وقال له: قف، فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك فأذن له [٣].

٣ ـ مثل أعلى في الإيمان:

جسَّده عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول في موقفه من والده، وتقديمه وإخلاصه للّه ولرسوله، وتقديم محبتهما ومراضيهما على محبة ومراضي الأبوة [٤]، لقد ضرب الابن أروع مثل في الإيمان التضحية بعاطفة الأبوة، فقابله ﷺ صاحب القلب الكبير والخلق العظيم بمثل رفيع في العفو والرحمة وحسن الصحبة (بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا) يا لروعة العفو، ويا لجلال العظمة النبوية [٥]، فقد تلطف النبي ﷺ بهذا الصحابي الجليل وهدأ من روعه، وأذهب هواجسه [٦].

٤ ـ محاربة العصبية الجاهلية:

إن العصبية الممقوتة والتي نصفها بالجاهلية غير مقصورة على العصبية القبلية أي الاشتراك في النسب الواحد، نسب القبيلة التي ينتمون إليها، وإنما الاشتراك في معنى أو وصف معين

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٢١).
(٣) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، (ص ٢٠٩) للقحطاني.
(٤) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/ ١٦٣).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).
(٦) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/ ١٦٢).

يجعل المشتركين فيه يتعاونون ويتناصرون فيما بينهم بالحق وبالباطل، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى أو الوصف المشترك، فعندما كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، قال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع النبي ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار. فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها منتنة» (١)، ووجه الدلالة بهذا الخبر أن النبي ﷺ أنكر هذه المناداة لما تشعره من معنى العصبية، مع أن المنادي استعمل اسماً استعمله القرآن وهو (المهاجرين) و(الأنصار). فالمهاجري استنصر بالمهاجرين مع أنه هو الذي كسع، فكأنه بندائه هذا يريد عونهم لاشتراكه وإياهم بمعنى واحد وهو (المهاجرة)، وكذلك الأنصاري استنصر بالأنصار لأنه منهم ويشترك وإياهم بوصف واحد ومعنى واحد وهو مدلول كلمة (الأنصار). وكان حق الاثنين ـ إذا كان لا بدّ من الاستنصار بالغير ـ أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعاً. وعلى هذا فالمطلوب من الدعاة التأكيد على نبذ العصبية بجميع أنواعها سواء كانت عصبية تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة، أو على أي أساس آخر، من بلد أو مذهب، أو حزب، أو عرق، أو لون، أو دم، أو جنس، وأن يكون الولاء والتناصر على أساس الاشتراك بالأخوة الإسلامية التي أقامها وأثبتها واعتبرها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠] .

وأن يكون التناصر فيما بينهم تناصراً على الحق لا على الباطل بمعنى أن ينصروا المحق وأن يكونوا معه لا مع المعتدي (٢).

لقد أوضح الرسول ﷺ أن العصبيات هي من دعاوي الجاهلية وقال: «لينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره» (٣)، فجعل التناصر في طلب الحق والإنصاف وأبطل المفهوم الجاهلي: أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً (٤).

إن مهمة الدعاة وطلاب العلم، والعلماء والفقهاء في التخلص من العصبية، ودعوة المسلمين إلى نبذها، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ مهمة صعبة، ولكنها ليست مستحيلة، ولأهميتها الكبيرة علينا أن نبذل ما في وسعنا لقلعها من النفوس (٥).

رابعاً: توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلامي في أعقاب غزوة بني المصطلق:

نزلت سورة المنافقون في أعقاب غزوة بني المصطلق، حيث كان المسلمون راجعين إلى

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٢٠٩).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٣٠١، ٣٠٢).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٢٠٩).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٢/ ٣٠٩).
(٥) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٣٠٢).

المدينة، وذلك بدليل رواية الإمام الترمذي (فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقون) [١].

فقد تحدّثت السورة بإسهاب عن المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم، ورويت عنهم وفضحت أكاذيبهم، إلا أنها في الختام حذّرت المؤمنين من الانشغال بزينة الدنيا ومتاعها، وحثّت على الإنفاق، ويمكن لدارس هذه السورة أن يلاحظ عدة محاور مهمة منها:

١ ـ تحدّثت السورة الكريمة في البداية عن أخلاق المنافقين، وفضحت كذبهم في أقوالهم ووصفت حالهم [٢]، فابتدأت هذه السورة بإيراد صفات المنافقين التي من أهمها: الكذب في ادعاء الأيمان، وحلف الإيمان الكاذبة، وجبنهم وضعفهم وتآمرهم على النبي ﷺ وعلى المؤمنين، وصدهم الناس عن دين الله [٣] قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: الآيات ١ ـ ٤].

٢ ـ ثم بيّنت الآيات عنادهم وتصميمهم على الباطل، وعصيانهم لمن يدعوهم إلى الحق، وبيّنت مقالاتهم الشنيعة بالتفصيل، خاصة ما قالوه في غزوة بني المصطلق من أنهم سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة وأن العزة لهم إلى غير ذلك من الأقوال الفظيعة [٤].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: الآيات ٥ ـ ٨].

وهكذا كان المجتمع المدني يتربّى بالأحداث، والقرآن الكريم يقوم بتوجيهه وتعليمه، ورسول الله ﷺ يقوم بالأشراف على ذلك.

---

(١) انظر: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة المنافقون» (٥/ ٤١٥).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٢٧).
(٣) انظر: التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي (٢٨/ ٢١٣).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٢٧).

خامساً: محاولة المنافقين الطعن في عرض النبي ﷺ بالافتراء على السّيدة عائشة رضي الله عنها بما يعرف بحديث الإفك:

حاك المنافقون في هذه الغزوة حادثة الإفك، بعد أن فشل كيدهم في المحاولة الأولى لإثارة النعرة الجاهلية، فقد ألمت بالبيت النبوي هذه النازلة الشديدة والمحنة العظيمة التي كان القصد منها النيل من النبي ﷺ ومن أهل بيته الأطهار.

هذا وقد أجمع أهل المغازي والسير [١] على أن حادثة الإفك كانت في أعقاب غزوة بني المصطلق، وتابعهم في ذلك المفسرون [٢]، والمحدثون [٣].

وقد أخرج البخاري ومسلم حديث الإفك في صحيحيهما وهذا سياق القصة من صحيح البخاري:

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها [٤]، فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب فأنا أُحمل في هَوْدَجي [٥] وأُنزلُ فيه.

فسرّنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلةً بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عِقْدٌ من جَزْعِ ظَفَار [٦] قد انقطع، فالتمست عقدي، وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط [٧] الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم، إنما نأكل العُلقة [٨] من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهَوْدَج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السنّ فبعثوا الجمل، وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ، ولا مجيب، فأممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صَفْوَان بنُ المعطَّل السُّلمي [٩] ثم الذَّكواني من وراء الجيش

---

(١) كالواقدي، والذهبي، والطبراني، وابن سعد، وابن حزم.
(٢) كابن كثير، والرازي، والطبري وغيرهم.
(٣) كابن حجر، والنووي.
(٤) هي غزوة بني المصطلق.
(٥) الهَوْدج: محمل له قبة تستر بالثياب يوضع على ظهر البعير تركب فيه النساء.
(٦) جزع ظفار: هو خرز معروف في سواده بياض كالعروق وهي مدينة باليمن.
(٧) الرهط: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة.
(٨) العلقة: البلغة من الطعام.
(٩) صحابي جليل كان صاحب ناقة رسول الله ﷺ في غزواته.

فأدلج [١] فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه [٢] حين عرفني، فخَمَّرت [٣] وجهي بجلبابي، ووالله ما كلَّمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا بعدما نزلوا موغرين [٤] في نحر الظهيرة [٥]، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أُبي ابن سُلول.

١ ـ انتشار الدعاية بالمدينة:

فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يُفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني [٦] في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «كيف تيكم؟» [٧] ثم ينصرف، وذاك الذي يريبني، ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت فخرجت معي أم مسطح قِبلَ المناصع [٨] وهو مُتَبَرَّزُنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف [٩] قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قِبلَ الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مِسْطَح وهي ابنة أَبي رُهْم بن عبد مَنَاف، وأمها بنت صَخْرِ بن عَامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مِسْطَحُ بنُ أُثَاثَة [١٠] فأقبلت أنا وأم مسطح قِبلَ بيتي قد فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مِرْطِها [١١] فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي ـ هَنْتَاه [١٢] أولم تسمعي ما قال؟ قالت: قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، ودخل عليّ رسول الله ﷺ ـ تعني سلّم ـ ثم قال: «كيف تيكم؟» فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلهما. قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبويّ فقلت لأمي: يا أُمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت

---

(١) فأدلج بالتشديد، سار آخر الليل.
(٢) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٣) فخمرت: أي غطيت.
(٤) موغرين: الوغرة شدة الحر.
(٥) نحر الظهر: أولها وهو وقت شدة الحر.
(٦) يريبني: يشككني.
(٧) كيف تيكم: وهي لمؤنث مثل ذاكم للذكر.
(٨) المناصع: المواضع التي يتخلى فيها لقضاء الحاجة.
(٩) الكنف: جمع كنيف، المكان الساتر.
(١٠) مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب، توفي في خلافة عثمان.
(١١) فعثرت في مرطها: أي وطئته برجلها فسقطت.
(١٢) هنتاه: يا بلهاء كأنها نسبت إليّ قلّة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم.

امرأة قط وضيئة [١] عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها [٢]، قالت: فقلت: سبحان الله، أو لقد تحدث الناس بهذا؟

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع [٣] ولا أكتحل بنوم، حتى أصبحت أبكي.

٢ ـ استشارة رسول الله ﷺ بعض أصحابه عند تأخر نزول الوحي:

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ حين استلبث [٤] الوحي، يستأمرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله أهلك، ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يُضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدُقك.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بَرِيرة فقال: «أي بَرِيرَة، هل رأيت من شيء يريبك؟» قالت بريرة: لا، والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصُه [٥] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن [٦] فتأكله، فقام رسول الله فاستعذر [٧] يومئذٍ من عبد الله بن أُبي ابن سلول قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً [٨] ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقام سعد بن مُعاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

٣ ـ آثار فتنة الإفك:

قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ـ وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية [٩] ـ فقال لسعد: كذبت لعمرُ الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، فقام أسيدُ بن حُضَيْر وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لَعَمْرُ الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن

---

(١) وضيئة: الوضاءة الحسن والبهجة.
(٢) إلا أكثرن عليها: أي القول في عيبها.
(٣) لا يرقأ لي دمع: لا ينقطع ولا يسكت.
(٤) استلبث: وهو الإبطاء والتأخر.
(٥) أغمصه عليها: أي أعيبها به وأطعن بها عليه.
(٦) الداجن: هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.
(٧) فاستعذر: أي قال من يقوم بعذري إن كفأته على سوء صنيعه.
(٨) هو صفوان بن المعطل السلمي.
(٩) احتملته الحمية: أي حملته الأنفة والغضب على الجهل.

المنافقين، فتثاور الحيّان [١] الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالقٌ كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي فاستأذنتْ عليّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلّم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها.

٤ ـ مفاتحة الرسول ﷺ لعائشة وجوابها له:

ولقد لبث شهراً [٢] لا يوحى إليه في شأني، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد، يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا [٣] فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنبٍ فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص [٤] دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ. قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقني، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف [٥] قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: ١٨] قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا حينئذٍ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

٥ ـ نزول الوحي ببراءة عائشة:

قالت: فوالله ما رام [٦] رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه فأخذه

---

(١) فتثاور الحيان: أي تناهضوا للنزاع والعصبية

(٢) التقيد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبويها.

(٣) كناية عما رميت به من الإفك.

(٤) قلص دمعي: أي ارتفع وذهب.

(٥) هو يعقوب عليه السلام.

(٦) ما رام: ما برح وما فارق مجلسه.

ما كان يأخذه من البُرَحاء [١] حتى أنه ليتحدَّر منه مثل الجُمَانِ [٢] من العرق، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي يَنْزل عليه.

قالت: فلما سُرِّي [٣] عن رسول الله ﷺ سُرِّي عنه، وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها: «يا عائشة أما الله ﷻ فقد برأك» فقالت أمي: قومي إليه، قالت: فقلت لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله ﷻ.

فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: الآيات ١١ ـ ٢٠].

٦ ـ موقف أبي بكر الصديق ممن تكلم في عائشة ـ رضي الله عنها ـ:

فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وكان ينفق على مِسطح بن أُثَاثة لقرابته منه وفقره ـ: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفقه عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش [٤] عن أمري، فقال: «يا زينب ماذا علمت؟ أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله أحمي [٥] سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني [٦] من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها .....

---

(١) البرحاء: شدة الكرب من ثقل الوحي.
(٢) الجمان: اللؤلؤ الصغار وقيل: حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ.
(٣) سرى: انكشف عنه ما يجده من الهم والثقل.
(٤) هي زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها وهي بنت عمته رضي الله عنها.
(٥) أحمي سمعي وبصري: أي أمنعهما من العذاب بسبب الكذب.
(٦) تساميني: أي تعاليني وتفاخرني أي تطاولني عنده ﷺ.

الله [١] بالورع [٢] وطفِقت [٣] أختها حَمْنة [٤] تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك [٥].

كانت قصة الإفك حلقة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين، وكان من لطف الله تعالى بنبيه وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها وبطلانها، وسجل التاريخ بروايات صحيحة مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لا سيما موقف أبي أيوب وأم أيوب، وهي مواقف يتأسى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفرية. فقد انقطع الوحي، وبقيت الدروس لتكون عبرة وعظة للأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها [٦].

سادساً: أهم الآداب والأحكام التي تؤخذ من آيات الإفك:

أخذ العلماء من الآيات التي نزلت في حادثة الإفك أحكاماً وآداباً من أهمها ما يأتي:

١ ـ تبرئة السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ من الإفك بقرآن يتلى إلى آخر الزمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ...﴾.

٢ ـ إن حكمة الله تعالى اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشر، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بحديث الإفك خيراً لهم حيث كتب لهم الأجر العظيم على صبرهم وقوة إيمانهم قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٣ ـ الحرص على سمعة المؤمنين، وعلى حسن الظن فيما بينهم قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

٤ ـ تكذيب القائلين بالإفك، قال تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

٥ ـ بيان فضل الله على المؤمنين ورأفته بهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

٦ ـ وجوب التثبت من الأقوال قبل نشرها والتأكد من صحتها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) عصمها: حفظها ومنعها.
(٢) الورع: الكف عن المحارم والتحرج منها.
(٣) طفقت: شرعت.
(٤) حمنة بنت جحش بنت عمته ﷺ وهي أخت زينب رضي الله عنهما.
(٥) البخاري: كتاب التفسير باب «لولا إذ سمعتوه..» رقم (٤٧٥٠).
(٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٠).

٧ ـ النهي عن اقتراف مثل هذا الذنب العظيم أو العودة إليه، قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النـور: الآيـتـان ١٧، ١٨] .

٨ ـ النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾] .

٩ ـ بيان فضل الله سبحانه على عباده المؤمنين ورأفته بهم، وكرر ذلك تأكيداً له، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

١٠ ـ النهي عن تتبع خطوات الشيطان التي تؤدي للهلاك، قال تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٢١] .

١١ ـ الحث على النفقة على الأقارب وإن أساءوا [١]، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

١٢ ـ غيرة الله تعالى على عباده المؤمنين الصادقين، ودفاعه عنهم وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللعن في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النُّـور: ٢٣ ـ ٢٥] .

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات: ولو قلّبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة ـ رضوان الله عليها ـ ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد، والعقاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ارتكب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الآيات الثلاث: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النُّور: ٢٥] ، لكفى بها حديث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذي هم أهله [٢].

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٨٦)، نقلاً عن تفسير الكشاف (٣/ ٢٢٣).

١٣ ـ بيان سنة من سنن الله الجارية في الكون وهي أن الطيبين يجعلهم الله من نصيب الطيبات، والطيبات يجعلهن من نصيب الطيبين. قال تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[النور: ٢٦].

١٤ ـ والناس عندما رميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا على أربعة أقسام [(١)]:

قال فضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد ـ عند تعليقه على حديث يتعلق بقصة الإفك ـ: إن الناس عندما رميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا أربعة أقسام: قسم وهم أكثر الناس، حموا أسماعهم وألسنتهم فسكتوا ولم ينطقوا إلا بخير ولم يصدقوا ولم يكذبوا، وقسم سارع إلى التكذيب وهم أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب ـ ﷺ ـ فقد وصفوه عند سماعه بأنه إفك وبرؤوا عائشة مما نسب إليها في الحال.

أما القسم الثالث فكانوا جملة من المسلمين لم يصدقوا ولم يكذبوا ولم ينفوا، ولكنهم يتحدثون بما يقول أهل الإفك، وهم يحسبون أن الكلام بذلك أمر هين لا يعرضهم لعقوبة الله، لأن ناقل الكفر ليس بكافر، وحاكي الإفك ليس بقاذف، ومن هؤلاء حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة.

أما القسم الرابع فهم الذين جاءوا بالإفك وعلى رأس هؤلاء عدو الله عبد الله بن أبيّ ابن سلول رأس المنافقين لعنه الله وهو الذي تولى كبره.

وقد أشار ﷻ إلى فضل القسم الثاني من هذه الأقسام وأنه كان ينبغي لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف فقال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النُّور: ١٢].

أما القسم الثالث فقد أشار الله ﷻ إلى أنه ما كان ينبغي لهم أن يتحدثوا بمثل هذا الحديث حيث يقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النُّور: الآيتان ١٥، ١٦].

وقد أثبت الله ﷻ لأهل القسم فضائلهم التي عملوها حيث أثبت لمسطح هجرته وإيمانه عندما حلف أبو بكر أنه لن ينفق على مسطح ولن يتصدق عليه، وهو من ذوي قرابته، فقال ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٨٧).

أما القسم الرابع وهو جماعة عبد الله بن أُبيّ الذين جاءوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر، وأنه لن يقبل منهم توبة، وأنه أنزل عليهم لعنته في الدنيا والآخرة [١] حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النُّور: ٢٣ ـ ٢٥].

سابعاً: فوائد وأحكام ودروس من حادثة الإفك وغزوة بني المصطلق:

١ ـ بشرية الرسول ﷺ:

جاءت محنة الإفك منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبي ﷺ، وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يلتبس بها، فلو كان الوحي أمراً ذاتياً غير منفصل عن شخصية الرسول ﷺ لما عاش الرسول ﷺ تلك المحنة بكل أبعادها شهراً كاملاً. ولكن الحقيقة التي تجلت للناس بهذه المحنة أن ظهرت بشرية الرسول ﷺ ونبوته، فعندما حسم الوحي اللغط الذي دار حول أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرسول ﷺ، وفرح الجميع بهذه النتيجة بعد تلك المعاناة القاسية، فدل ذلك على حقيقة الوحي، وأن الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى لبقيت رواسب المحنة في نفس رسول الله ﷺ بصفة خاصة، ولانعكس ذلك على تصرفاته مع زوجته عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلاً كبيراً على نبوة محمد ﷺ [٢].

٢ ـ حد القذف وأهميته في المحافظة على أعراض المسلمين:

كان المجتمع الإسلامي يتربى من خلال الأحداث، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولى ﷻ أن يشرع بعض الأحكام التي تساهم في المحافظة على أعراض المؤمنين، ولذلك نزلت سورة النور، التي تحدثت عن حكم الزاني والزانية، وعن قبح فاحشة الزنا، وعما يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزوجين صاحبه، وعن العقوبة التي أوجبها الله على الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى غير ذلك من الأحكام [٣].

إن الإسلام حرم الزنا، وأوجب العقوبة على فاعله، فقد حرم أيضاً كل الأسباب المسببة له، وكل الطرق الموصلة إليه، ومنها إشاعة الفاحشة والقذف بها، لتنزيه المجتمع من أن تسري فيه ألفاظ الفاحشة والحديث عنها، لأن كثرة الحديث عن فاحشة الزنا وسهولة قولها في كل وقت يهون أمرها لدى سامعيها، ويجرىء ضعفاء النفوس على ارتكابها، لهذا حرمت الشريعة الإسلامية القذف بالزنا، وأوجبت على من قذف عفيفاً أو عفيفة طاهراً أو طاهرة، بريئاً أو بريئة

---

(١) انظر: فقه الإسلام شرح بلوغ المرام، لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد (٩/ ٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤١).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٥٧).

من الزنا حد القذف وهو الجلد ثمانون جلدة، وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبة صادقة نصوحاً [١].

هذا وقد أقام رسول الله ﷺ حد القذف على مسطح وحسان وحمنة، وروى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأة: مسطحاً وحساناً وحمنة وذكره الترمذي [٢]. قال القرطبي والمشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذي حُدَّ حسان ومسطح وحمنة ولم يُسمَع بحدٍّ عبد الله بن أُبي [٣]، وقد وردت آثار ضعيفة تدل على أن عبد الله بن أُبي أقيم عليه الحد ولكنها كلها ضعيفة لا تقوم بها حجة [٤].

وقد ذكر ابن القيم وجه الحكمة في عدم حد عبد الله بن أُبي فقال:

- قيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ويكفيه عن الحد.

- وقيل: كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه.

- وقيل: الحد لا يثبت إلا ببيّنة أو إقرار، وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، فإنه كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

- وقيل: بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته عليه، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مراراً، وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم من الإسلام.

ثم قال - في ختام كلامه: ولعله ترك لهذه الوجوه كلها [٥].

٣ - اعتذار حسان - رضي الله عنه - للسيدة عائشة - رضي الله عنها -:

قد بيّنت الروايات أن من خاض في الإفك قد تاب - ما عدا ابن أُبي - وقد اعتذر حسان رضي الله عنه عما كان منه وقال يمدح عائشة بما هي أهل له [٦]:

رأيتك وليغفر لك الله حرة ... من المحصنات غير ذات غوائل
حصان رزانٌ ما تزن بريبةٍ ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
وإن الذي قد قيل ليس بلائق ... بك الدهر بل قيل امرىء متناحل

---

(١) انظر: آثار تطبيق الشريعة، د. محمد الزاحم، (ص ١١٧).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١٩٧).
(٣) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٠١).
(٤) انظر: مرويات غزوة بني المصطلق، (ص ٢٤٢).
(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٦٣، ٢٦٤).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٦٣).

فإن كنت أهجوكم كما بلَّغُوكم ... فلا رفعت سوطي إليَّ أناملي
فكيف ووُدّي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل
وإن لهم عزاً يرى الناس دونه ... قصاراً، وطال العزّ كل التطاول [١]

٤ ـ من الأحكام المستنبطة من غزوة بني المصطلق:

جواز الإغارة على من بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذار، ومنها صحة جعل العتق صداقاً كما فعل ﷺ مع جويرية بنت الحارث في هذه الغزوة، ومنها مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن، ومنها جواز استرقاق العرب كما حدث في الغزوة وهو قول جمهور العلماء [٢]، وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سب عائشة ـ رضي الله عنها ـ بعد براءتها براءة قطعية بنص القرآن، ورماها بما اتهمت به فإنه كافر لأنه معاند للقرآن [٣]، ومن الأحكام التي عرفت في هذه الغزوة حكم العزل عن النساء حيث سأل الصحابة الرسول ﷺ عنه فأذن به وقال: «ما عليكم ألا تفعلوا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة» [٤].

فذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزوجة الحرة بإذنها [٥]، ونزلت آية التيمم في هذه الغزوة تنويهاً بشأن الصلاة وتنبيهاً على عظيم شأنها، وأنه لا يحول دون أدائها فقد الماء، وهو وسيلة الطهارة التي هي أعظم شروطها، كما لا يحول الخوف وفقد الأمن من إقامتها [٦].

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي، (ص ٢٨١).
(٢) انظر: كتاب الأم للشافعي (٤/ ١٨٦).
(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (٥/ ٦٤٣).
(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٤١٥).
(٥) انظر: نيل الأوطار للشوكاني (٦/ ٢٢٢ ـ ٢٢٤).
(٦) صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٢١٠، ٢١١).

obeikandl.com